بَلاغةُ النُّصْحِ بِمكارمِ الأخْلاقِ

في لاميَّةِ ابنِ الوردي (ت ٧٤٩هـ)

إعداد الدكتورة

وديدة عبد الظاهر السيد الشناوي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

القاهرة- جامعة الأزهر

بلاغةُ النُصحِ بمكارمِ الأخلاقِ في لاميَّةِ ابنِ الورديِّ (ت ٧٤٩هـ)

وديدة عبد الظاهر السيد الشناوي.
قسم البلاغة والنقد كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة- جامعة الأزهر- جمهورية مصر العربية.
الإيميل الجامعي: wadedaelshenawy1671.el@azhar.edu.eg

الملخص:

يُعدُّ ابنُ الورديّ من كبارِ الأدباءِ والعُلماءِ الَّذين يشهدُ لهم التاريخُ، فهو أبو حفص عُمرُ بنُ الورديّ، القاضي الفقيهُ اللغويُّ الأديبُ، من شعراءِ العصرِ المملوكيّ، تولَّى القضاءَ، وعاصرَ المشاكلَ الَّتي يواجِهُها المجتمعُ؛ نتيجةً لنقصِ الأخلاق، أو لعدمِ وضوحِ القِيَمِ الخُلُقِيَّةِ، فحملَ علَى عاتِقِهِ مواجهةَ ذلكَ وإصلاحَهُ، فقدَّم لاميَّتَهُ المشهورةَ الَّتي حمَّلها كثيرًا من التوجيهاتِ الخُلُقيَّةِ في صياغةٍ أدبيَّةٍ رفيعةٍ، جيِّدةِ السَّبْك، فقصيدتُهُ هذه تُعدُّ من أروعِ قصائدِهِ، وقد ذاعَ صيتُها، وطارتْ شُهرَتُها؛ لما اشتملتْ عليْهِ من أبياتٍ تُخاطِبُ العقلَ والوجدانَ، وتُقيمُ الحُجَّةَ والبُرهانَ، وتُعزِّزُ الرغبةَ في مكارمِ الأخلاق، وتحذِّرُ من الدُّنْيا ومُغْرَياتِهَا، وذلك بأسلوبٍ بليغٍ يمتازُ بسهولةِ الألفاظِ، ووُضوحِ المعاني، وتشويقِ المتلقِّي، وإثارةِ ذهنِهِ، ممَّا يؤثِّرُ فِي النُّفوسِ، ويَحْمِلُهَا على التَّفاعُلِ مع هذه الوَصايا الغاليةِ والحِكمِ الخالدةِ الَّتي تكثُرُ في أبياتِ القصيدةِ.

ويهدُفُ هذا البحثُ إلى بيانِ أثرِ بلاغةِ الأساليبِ في لاميَّةِ ابنِ الورديِّ على تشكيلِ البناءِ القِيَمِيّ والتَّوجيهِ الخُلُقِيّ لدى المُتلقِّينَ، لِمَا قدَّمهُ فيها من النُّصْحِ بمكارمِ الأخلاق؛ وذلك لاسْتبانةِ الوسائلِ البلاغيَّةِ المُؤثِّرةِ في هذا

المجالِ، ودمْجِها معَ مُسْتجدَّاتِ العصرِ، والاستفادةِ منها وَفْقًا لما جدَّ من أحوالٍ ومُقتضياتٍ.

وهذه الدراسةُ استعنتُ فيها بالمنهجِ الوصفيِّ بأدواتِهِ من الاستقراءِ والتحليلِ والتذوقِ للعناصرِ الَّتِي تضمَّنتْها لاميةُ ابنِ الورديّ.

وَمِنْ نتائجِ هذا البحثِ أنَّ ابنَ الورديِّ كان يُتْبِعُ توجيهَاتِهِ الأخلاقيَّةَ بالشَّرْحِ والتعليلِ، وإبداءِ الحُجَّةِ والدَّليلِ، فيأتِي بالفاءِ إذا انصرفَ ذِهنُهُ إلَى العلَّةِ أو السَّببِ، يُوَضِّحُها ويُلقيها للمخاطَبِ دونَ أنْ ينتظرَ منه السؤالَ مبادرًا إيَّاهُ، وكثيرًا ما يأتِي بالسَّبَبِ والعِلَّةِ في جُملةٍ فصِلتْ عمَّا قبلَها علَى سبيلِ الاستئنافِ البيانِيّ، إذا لحظَ أنَّ في كلامِهِ ما يُثيرُ المُخاطَبَ ويحرِّكُ في ذهنِهِ التساؤلاتِ.

الكلماتُ المِفْتاحيَّة: بلاغة- شعر - النصح- مكارم - الأخلاق- لامية ابن الوردي.

The Eloquence of Moral Counsel on Noble Ethics in Ibn El-Wardi's Lameyyah Poem

Wadeda Abdel Zaher El-Sayed El-Shenawy

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arab Studies for Female Students, Al-Azhar University, Cairo, Egypt

E-mail: wadedaelshenawy1671.el@azhar.edu.eg

Abstract:

Ibn Al-Wardi (d. 749 AH) was Abu Hafs Omar ibn Al-Wardi, a jurist, linguist, and literary figure from the Mameluke era who served as a judge. He lived during a time when society was plagued by moral issues, and he took it upon himself to address and rectify this moral decline. His renowned "Lamiyyah" poem is one of his most admired works, celebrated for its verses that speak to both intellect and emotion, providing clear reasoning and inspiring a desire for noble virtues. This research aims to examine the impact of rhetorical techniques in Ibn Al-Wardi's "Lamiyyah" on shaping the ethical framework and moral direction of its readers. By analyzing the poetic devices that convey his counsel on noble ethics, the study seeks to highlight influential rhetorical methods, merging them with contemporary needs and taking lessons that can be adapted to current times and circumstances. This study employs a descriptive method, utilizing tools such as induction, analysis, and appreciation to explore the elements within Ibn Al-Wardi's "Lamiyyah." Among the findings is that Ibn Al-Wardi often follows his moral

guidance with explanations, reasoning, and evidence, using language that engages the audience and prompts thought-provoking questions.

Keywords: rhetoric – poetry – counsel – noble ethics – Ibn El-Wardi's Lameyyah

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسَّلامُ على أشرفِ المُرسَلين، سيِّدِنا ونبيِّنا محمدٍ الَّذي أرسله ربُّه بالهُدى ودينِ الحقِّ ليُظهرَه على الدِّينِ كلِّه ولوْ كرِه المُشركون، وبعدُ:

فإنَّ لاميةَ ابن الورديِّ تغُصُّ بكثيرٍ من الحِكَمِ والمواعظِ الَّتي تهمُّ الإنسانَ في سلوكيَّاتِهِ مع نفسِهِ، وفي سلوكيَّاتِهِ مع الآخرين، بدايةً من وجوبِ تخلُّقِ الإنسانِ بالفضائلِ والشِّيَمِ الحميدةِ المجيدةِ الَّتِي تجعله محمودًا عندَ اللهِ تعالى وعندَ خَلقِهِ، ومُرورًا بأخلاقياتِ المصاحبةِ والتعاملِ مع الساسةِ والقادةِ، والنُّصْحِ بعزَّةِ النَّفْسِ، وعدمِ الخُنُوعِ والخُضُوعِ لِبشرٍ كائنًا مَنْ كان، وعدمِ اللهثِ وراءَ إغراءاتِ الدُّنيا الفانيةِ ومُتَعِهَا الزَّائلةِ، وتضمَّنتْ كذلكَ الحثَّ والتَّشْجيعَ على العلْمِ والتعلُّمِ، وخاصَّةً علمَ الفقهِ الذي يضبْطُ أنظمةَ عبادةِ الخالقِ ﷻ، وعلمَ النَّحْوِ الذي يضبطُ نظامَ التَّكلُّمِ ومخاطبةَ الآخرين، وغيرَ ذلك من الموضوعاتِ الَّتِي نصحَ بها ابنُ الْوَرديِّ في لاميَّتِهِ الشَّهيرةِ الذَّائعةِ الصِّيتِ.

وقدْ تأمَّلْتُ في لاميَّةِ ابنِ الورديِّ وتمعَّنتُ، فوجدتُّها غاصَّةً بالتراكيب البلاغيَّة التي اسْتعانَ بها ابنُ الورديِّ في توصيلِ المعنى للآخرِ، وتوضيحِه وتقويته؛ منْ خلالِ استمالةِ المُخاطَب وتشويقِهِ وجذبِ انتباهِهِ، وضمانِ إصغائِهِ، مُستعينًا بأساليبَ بلاغيَّةٍ شتَّى منْ أبوابِ علومِ البلاغةِ البيانِ والمعاني والبديعِ، فأحببتُ أن أصوغَ القصيدةَ صياغةً وعظيَّةً بلاغيةً تبيِّنُ ما فيها من جماليَّاتِ الأسلوبِ وكماليَّاتِهِ.

موضوع البحث:

والموضوع الذي اخترته ليكون عنوانًا لهذه الدراسة هو:

"بَلَاغةُ النُّصْحِ بمكارمِ الأخلاق في لاميَّةِ ابنِ الورديّ(ت ٧٤٩هـ)"

أهميَّة الموضوعِ:

تأتي أهميتُهُ من هدفِ القصيدةِ وهو الوعظُ والحِكَمُ الَّتي تُصلِحُ أخلاقيَّاتِ الإنسانِ، وتهذِّب سلوكيَّاتِهِ مع نفسِهِ ومعَ الآخَرِ، وكيف أنَّ اللَّمسَاتِ البلاغيَّةَ واللفتاتِ الجماليَّةَ للأسلوبِ ساعدتْ وأعانتْ على الِاقْتِناعِ بِالْموْعِظةِ، ومدَى التأثُّرِ بها واتِّخَاذِها منهجَ حياةٍ.

منهج الدِّراسة:

وهذه الدراسةُ استعنتُ فيها بالمنهجِ الوصفيِّ بأدواتِهِ من الاستقراءِ والتحليلِ والتذوُّق للعناصرِ التي تضمَّنتْها أبياتُ شعرِ الأخلاق في لاميَّة ابن الورديّ.

خطَّة الموضوع:

وهذا البحثُ تضمَّن –بعدَ **تمهيدٍ** اشتمل على التعريفِ بابنِ الورديّ ونتاجِه الأدبيِّ، وتأثيرِ الشِّعرِ على الأخلاق– **خمسةَ مباحثَ، هي:**

المبحث الأول: مُفْتَتَحُ اللَّاميَّة.

المبحث الثاني: الوَصَايَا.

المبحث الثالث: القناعَةُ والرِّضا بالقلِيل.

المبحث الرابع: التَّعامُل مع مختلفِ الفئاتِ والأحْوالِ.

المبحث الخامس: مُختَتَمُ اللَّاميَّة.

ثمَّ تأتي **خاتمةُ** البحثِ ونتائجُهُ، ويعقُبُ ذلك **ثبتُ المصادرِ والمراجع.**

هدف الدراسة:

تهدُفُ هذه الدراسةُ إلى التعرُّفِ على وسيلةِ الشاعرِ، وطريقتِهِ في الوعظِ والْحِكَمِ، وكيفَ أنَّه مزج بين ذلكَ وبين تضمينِ كلامِهِ كثيرًا من مباحِثِ علومِ البلاغةِ الثلاثةِ.

الدراسات السابقة:

لاميَّةُ ابنِ الورديِّ تناولَها كثيرٌ من العلماءِ قديمًا بالشَّرْحِ والتَّوْضيحِ، ولكنَّ هذا التناولَ كان تناولا بعيدًا عن بيانِ النِّكاتِ البلاغيَّةِ والجماليَّةِ في القصيدة؛ حيثُ لم يتعرَّضْ أحدٌ لبيانِ ذلكَ على قدرِ اطِّلاعي، فأردتُّ أنْ أنهضَ بتلكَ المهمَّةِ.

ومن هذه الدراسات السابقة:

- العَرْفُ النَّدِيُّ في شرحِ منظومةِ ابنِ الورديِّ، للشيخ عبد الوهَّاب بن محمد الخطيب، المتوفَّى بعدَ (١٠٣١هـ).
- التُّحْفَةُ النَّدِيَّةُ فِي شرحِ اللَّاميَّةِ الْورْديَّةِ، لشيخِ الإسلامِ نَجمِ الدِّين الغزِّيّ العامريّ، المتوفَّى (١٠٦١هـ).
- التُّحْفَةُ المَرْضِيَّة في شرحِ القصيدةِ الورْديَّةِ، للشيخ جاد الله الغنيمي الفيُّوميّ، المتوفَّى (١١٠١هـ).
- تفاصيلُ الجُمَلِ شرح لاميَّة ابن الورديّ، د. عبد العزيز الحربيّ، الرياض.

وغيرُها من الشُّروح[١] والتَّخْمِيسات[٢] التي تناولتْ لاميَّةَ ابنِ الورديّ، وعلَّقتْ عليها.

والله تعالى من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) يُنظَرُ في شروح لاميَّة ابن الورديّ: العِطْر الورديّ في تخميس لاميَّة ابن الورديّ، نظم القاضي الأديب محمد بن عبد اللطيف آل محمود البحرينيّ، المتوفَّى (١٣٩٠هـ)، تحقيق وتعليق: السيد محمد رفيق الحسيني، دار البشائر الإسلامية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م، صـ١٧، ١٨.

(٢) يُنظر: السابق ذاته، صـ ١٨، ١٩. والتخميس: أن يُؤتى بخمسَةِ أقسمةٍ على قافيةٍ، ثم بخمسةٍ أخرى في وزنها على قافيةٍ غيرِها كذلك، إلى أن يفرغ من القصيدة. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيروانيّ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل- بيروت، ط٥، ١٩٨١م، ١/ ١٨٠، وينظر: ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، تأليف العلامة: السيد أحمد الهاشمي، حققه وضبطه: أ.د/ حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب- القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ص١٣٢.

تمهيدٌ

التَّعريفُ بابنِ الورديِّ ونتاجه الأدبيّ

هو "زينُ الدينِ عُمرُ بنُ مظفَّر بنِ عمرَ بنِ محمدِ بنِ أبي الفوارس بنِ الورديِّ المَعَرِّيِّ الحلبيِّ الشافعيِّ، كانَ إمامًا بارعًا في اللغةِ والفقهِ والنَّحوِ والأدبِ، مفننًا في العلمِ، ونظمُهُ في الذروةِ العُليا والطبقةِ القُصوَى، وله فضائلُ مشهورةٌ"(١).

وقدْ "وُلِدَ في مَعَرَّة النعمانِ بسورية، ووليَ القضاءَ بـــ "منبج"، وتوفِّي بحلب"(٢).

برعَ في علومٍ شتَّى، منها الفقهُ، والأدبُ، والنحوُ، و "صنَّف البهجةَ في نظم الحاوي الصغير، وشرح ألفيَّة ابن مالك، وضوء الدرَّة على ألفيَّة ابن مُعطِي، واللُّباب في علم الإعراب، وتذكرة الغريب في النَّحو نظمًا، ومنطق الطَّيْر في التصوف، وغير ذلك، وله مقاماتٌ في الطَّاعُون العام، واتُّفِقَ أنَّهُ مات بأخَرَةٍ في سابع ذي الحِجَّة بحلب، والروايةُ عنه عزيزةٌ"(٣).

وهو شاعرٌ، أديبٌ، مؤرخٌ، من كُتُبِهِ "ديوانُ شعرٍ- مطبوع" فيه بعض نظمه ونثره، و"تتمة المختصر- مطبوع" تاريخ، مجلدان، يعرف بتاريخ ابن الوردي، جعله ذيلًا لتاريخ أبي الفداء وخلاصةً له، و" تحرير الخصاصة في

---

(١) شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب، لابن العماد شهاب الدين أبي الفلاح العكري الحنبلي الدمشقيّ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، ٨/ ٢٧٥، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، ١٤١٣هـــ- ١٩٩٢م، و بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت٩١١ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢- دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م. (٢/ ٢٢٦).

(٢) الأعلام، لخير الدين الزركلي، ٥/ ٦٧، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط ١٥، ٢٠٠٢م.

(٣) شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب، ٨/ ٢٧٦.

تيسير الخلاصة- مخطوط" نثر فيه ألفية ابن مالك في النحو، و"الشهاب الثاقب- مخطوطٌ" تصوف، و "اللباب في الإعراب" نحو، و "شرح ألفية ابن مالك"، و "شرح ألفية ابن معطي"، و"تذكرة الغريب" منظومةٌ في النحو، و"مقاماتٌ" في الأدب، و "منطق الطير" منظومة في التصوف، و"بهجة الحاوي" نظم بها الحاوي الصغير في فقه الشافعية، وتنسب إليه" اللامية" التي أولها: "اعْتَزِلْ ذِكْرَ الْأَغَانِي وَالْغَزَلْ"، ولم تكن في ديوانه، فأُضيفتْ إلى المطبوع منه(١).

وقد تولَّى القضاءَ، وعاصرَ المشاكلَ الَّتي يواجِهُها المجتمعُ؛ نتيجةً لنقصِ الأخلاقِ، أو لعدمِ وضوحِ القِيَمِ الخُلُقِيَّةِ، فحمَلَ علَى عاتِقِهِ مواجهةَ ذلكَ وإصلاحَهُ، فقدَّم لامِيَّتَهُ المشهورةَ الَّتي حمَّلها كثيرًا من التوجيهاتِ الخُلُقيَّةِ في صياغةٍ أدبيَّةٍ رفيعةٍ، جيِّدةِ السَّبْك.

كما تميَّز بمكانتِهِ العلميَّة، حتَّى أثْنَى عليه العلماءُ والمؤرِّخون، ومن ذلك ما جاء في ترجمتِهِ: "عمرُ بنُ مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، القاضي الأجلُّ، الإمامُ الفقيه، الأديبُ الشاعر، زينُ الدين ابن الورديّ المعرّيّ الشافعيّ، أحدُ فُضَلاءِ العصرِ وفُقهائِهِ، وأدبائِهِ وشعرائِهِ، تفنَّنَ في العلومِ، وأجادَ في المنثورِ والمنظُومِ، نظْمُهُ جيِّدٌ إلى الْغايةِ، وفضلُهُ بلغَ النهايَة"(٢).

******

(١) الأعلام، لخير الدين الزركلي، ٥/ ٦٧.

(٢) فوات الوفيات، لمحمد بن شاكر أحمد بن عبد الحمن الكُتُبيّ (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٠م، ٢/ ١٩٥.

تأثيرُ الشِّعْرِ على الأخلاق:

كلمةُ الأخلاقِ كلمةٌ واسعةٌ فضفاضةٌ، تتضمن كلَّ خلقٍ جميلٍ نبيلٍ، يُحبُّ الإنسانُ أن يُعامَلَ به مِنْ غيره، ويتعاملَ بهِ من الكرمِ والمروءةِ والنَّخوةِ والشَّهامةِ والنَّجدة، وإغاثةِ الملهوفِ والعفوِ عند المقدرةِ والعفَّة، وحفظِ الحُرُماتِ وعدمِ الاطِّلاعِ على العوْراتِ، والصدقِ والأمانةِ وطيبِ اللسان، وغيرِها ممَّا سمَّاه نبيُّنا الكريمُ ﷺ مكارمَ الأخلاق، حيثُ أرسلَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ بالرسالة الخاتمة؛ ليُتمِّمَ مكارمَ الأخلاق، فقال ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ[١]"، وفي روايةٍ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ[٢]"، وقد جعلها القرآنُ من شمائلِ رسولِ الله ﷺ ، فقال – تعالى–: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[سورة القلم: ٤].

وقولُ سيدنا محمد ﷺ: "لِأُتَمِّمَ" يدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ هذه المكارمَ الأخلاقيَّةَ كانتْ موجودةً قبل بعثتِهِ ﷺ في العصرِ الجاهليّ.

والأخلاقُ جمعُ خُلُقٍ، و"الخُلُقُ، بِضَمِّ اللَّامِ وَسُكُونِهَا: هُوَ الدِّينُ والطَّبْعُ وَالسَّجِيَّةُ، وَحَقِيقَتُهُ أَنَّهُ لِصورةِ الإِنسانِ الْبَاطِنَةِ وَهِيَ نفْسُهُ وأَوصافُها وَمَعَانِيهَا المختصةُ بِها بِمَنْزِلَةِ الخَلْق لِصُورَتِهِ الظَّاهِرَةِ وأَوصافِها وَمَعَانِيهَا، وَلَهُمَا أَوصافٌ حسَنَةٌ وَقَبِيحَةٌ"[٣].

ولقدِ اهتمَّ التراثُ العربيُّ والإسلاميُّ بالجانبِ الأخلاقيِّ؛ لما فيه من صلاحِ المجتمع وتماسكه وبقائه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، حديث رقم (٨٩٥٢)، والبيهقي في السنن الكبرى، حديث رقم: (٢١٣٠٣).

(٢) أخرجه البخاري، في الأدب المفرد، باب "حُسْنُ الخلُق"، حديث رقم (٢٧٣).

(٣) لسان العرب، لابن منظور محمد بن مكرم جمال الدين الأنصاريّ، طبعة دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة، د.ت، مادة (خلق).

وإنَّ الشعرَ العربيَّ مِنْ فنونِ القولِ الجميلِ الَّتي دعتْ للتَّحلِّي بمكارمِ الأخلاقِ وكشفتْ عنها، ولها تأثيرٌ محسوسٌ وملموسٌ في نشرِ الأخلاق، وصرَّحتْ بها في عصور الشعر كلِّها بدايةً من العصرِ الجاهليِّ، ومرورًا بالعصر الإسلامي وحتَّى العصر الحديث والحاضر، حيث لم يخْلُ زمنٌ من الأزمان ولا عصرٌ من العصور إلا وقد تمسَّك أفرادُهُ بكثيرٍ من مكارمِ الأخلاقِ؛ لأنَّ الفطرةَ الإنسانيَّةَ التي فطر اللهُ – تعالى– الناس عليها ترضى هذه الأخلاقَ في التعاملاتِ الماديَّةِ والسلوكِ البشريِّ.

وكان الشعرُ– لما له من وقعٍ جميلٍ في السمع وحلاوةٍ في الخيال– ذا أثرٍ واضحٍ في الإرشاد والنصح والتعوُّد والتعاملِ بهذه الأخلاق.

وعلى سبيل المثال وليس الحصر لو قرأنا الشعرَ الجاهليَّ قراءةً فاحصةً ماحصةً، لوجدْنا كمًّا وفيرًا وعددًا كثيرًا من القصائد الشعرية قد غصَّت بأبياتٍ تلمح إلى مكارم الأخلاق، فنجد الشاعر عنترة بن شداد يقول في قصيدة له داعيًا إلى العفة واجتناب المحارم والبعد عن الشبهات:

وَأَغُضُّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لي جَارَتِي .:. حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَـــا

إِنِّي امْرُؤٌ سَمْحُ الْخَلِيقَةِ مَاجِـــدٌ .:. لَا أُتْبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا(١)

ولقد غصَّ شعرُ هذا الشاعرِ الفارسِ المِغْوارِ بكثيرٍ من أبياتِ الدعوةِ إلى مكارمِ الأخلاقِ التي دعا إليها دينُنا الحنيف، وأقرَّها وأمرَ بالتخلُّق بها.

---

(١) ديوان عنترة بن شدَّاد العبسي، مطبعة الآداب لصاحبها/ أمين الخوري، بيروت، ١٨٩٣م، صـــ ٩٣، وينظر: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، لأبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمريّ الأندلسيّ المعروف بالأعلم (٤٧٦هـــ)، تحقيق وتعليق: د/ عبد المنعم خفاجي، ط١، المطبعة المنيرية بالأزهر– القاهرة، ١٣٧٣هـــ– ١٩٥٤م، صـــ ٨٥. وينظر: شرح المعلقات التسع لأبي عمرو الشيباني، تحقيق وشرح: عبد المجيد همو، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٢٢هـــ– ٢٠٠١م، صـــ ٢١٦.

وكذلك الشَّاعر زُهَيْرُ بنُ أبي سُلْمَى الذي اشتهر بأنَّه شاعرُ السّلمِ في العصر الجاهليّ، حيث ظلَّ يدعو في معلَّقتِه الشهيرة – التي عَلِقَتْ بالقلوب والأسماع – إلى وقفِ الحرب الضَّرُوسِ الَّتي كانتْ بين عبْس وذبْيان لأسبابٍ تافهةٍ، وحذَّر من ويلات هذه الحرب على الشباب والغلمان والنساء وحتى على من يولد من الولدان، وأنَّها لو استمرَّتْ ستأكل الأخضر واليابس(١).

ومن يطالع معلَّقة زُهير بنِ أبي سُلْمَى يجدها مترعةً مفعمةً بكثيرٍ من الأخلاقيات الأصيلة النبيلة التي ترضاها الفطرة الإنسانيَّة السليمة المستقيمة.

ويأتي العصرُ الإسلاميُّ ويكثر الحديثُ فيه عن الأخلاق كثرةً ملحوظةً، حيثُ تأثَّر الشعراءُ بأسلوبِ القرآنِ الكريمِ وما فيه من الدعوة إلى التخلق بمكارم الأخلاق في معظم سُوَرِه وجُلِّ آياتِهِ، قال الله –تعالى–: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال ﷻ: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأيضًا تأثَّر الشعراءُ بأحاديث رسولِنا ﷺ الَّتي فيها دعوةٌ إلى التحلِّي بكلِّ خلقٍ قويمٍ كريمٍ، فوجدْنا هذا العصرَ وما بعدَه من عصورٍ لا تكاد تخلو قصيدةٌ من القصائد إلا وفيها دعوةٌ إلى خيرٍ، ونهيٌ عن منكرٍ.

وقدْ هَبَّ الشعراءُ لامتداحِ أخلاق الرسولِ ﷺ ، فضمَّنوا شعرَهم كثيرًا من مكارمِ الأخلاق التي جُبِلَ عليها سيدُنا محمدٌ ﷺ، وعلى رأسِ هؤلاءِ الشعراء: حسَّانُ بنُ ثابتٍ، وكعبُ بنُ زُهيْرٍ الذي مدح النبيَّ ﷺ ببُردتِه المشهورةِ المعروفةِ باسم "بانتْ سُعَادُ".

(١) ينظر في ذلك: جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي تحقيق: علي محمد البجاوي ط. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت، صـــ ١٦٥.

ويتوالى الشعراءُ في كافَّةِ العصورِ الأدبيَّةِ في الحديثِ عن الأخلاق في أشعارهم، حتى ظهر غرضٌ شعريٌّ يلمس الحديثَ عن الأخلاق، وهو غرضُ الزُّهد، ومن رُوَّادِه: أبو العتاهية، وشِعْرُ الحِكَم، ومن رُوَّادِهِ: صالح بن عبد القُدُّوسِ، والمقامُ هنا يضيقُ عن ذكرِ أمثلةٍ من أشعارِ الأخلاق في كلِّ العصور الأدبيَّة.

ويظلُّ الشعرُ مصدرًا ثرًّا للحديث عن الأخلاق في العصرِ الحديث، ومن السَّادةِ القادَةِ في تضمين شعرِهِمُ الحديثَ عن الأخلاق أميرُ الشعراء أحمدُ شوقي الذي قال عنه أحدهم: إنَّ شوقي اختصر شريعة الإسلام في بيتٍ واحدٍ لمَّا قال:

الدِّينُ يُسْرٌ وَالْخِلَافَــةُ بَيْعَــةٌ ∴ وَالْأَمْرُ شُورَى وَالْحُقُوقُ قَضَاءُ[(١)]

كلُّ هذا وغيره يدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ الشعرَ ليس بمعزلٍ عن الحديث عن الأخلاق، كما أنَّ له تأثيرًا كبيرًا في الدعوةِ إلى مكارمِ الأخلاق؛ بما للشعر من وقعٍ حسنٍ في الأسماع، حتَّى أصبحَ أداةً من أدواتِ المتحدِّث الَّذي يُخاطب جمهورَ الناس.

والأخلاقُ مزيَّةٌ من مزايا العرب في جاهليتهم، والباحثُ يستطيع من خلال دراسة آثار العرب أن يستشف من بعض عاداتهم التفكُّرَ الأخلاقيَّ، وأنْ يتبيَّنَ أنَّهم عرفوا طبائع النفس، والفضائلَ التي كانوا يتواصَوْنَ بها ويفخرون بتوارُثِها[(٢)].

---

(١) الشوقيات ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي، دار العودة، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٨م، ١/ ٣٤، والبيت من همزيَّة أحمد شوقي المشهورة: ولد الهدى فالكائنات ضياء.

(٢) ينظر: فلسفة الأخلاق في الإسلام، الدكتور/ محمد يوسف موسى، طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة، ط الثالثة، ١٩٩٤م، صـــ ٧.

ومن مزايا الأخلاق في التُّراثِ العربيِّ الإسلاميِّ أنَّها تأتي في ذرْوةِ سنام الحِكَم، والتي هي من أعظم ما يهبه اللهُ الإنسانَ، قال -تعالى-: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[سورة البقرة: ٢٦٩].

ومن ثمَّ فقد امتزجتِ الأخلاقُ في أقوالِ العربِ شعرًا ونثرًا وحكمةً ومثلًا؛ لتكون هديًّا للمجتمع الإسلاميِّ يتناقلُه الأجيالُ؛ لتستقيم حياتُهم، ولتعلوَ به رتبُهُم بين الأمم، "وقد كان لهم مع هذا حِكَمٌ تدورُ على ألسنتِهِمْ نثرًا وشعرًا، وآدابٌ عمليَّةٌ يأخذون أنفسَهُمْ بها ويحرصُونَ على أنْ تُنْقَلَ من جيلٍ إلى جيلٍ، وإنَّ هذه الحكمَ والآدابَ والأخلاقَ ممَّا ذخرتْ به كتبُ الأدبِ ودواوينُ الشعر، وقد أقرَّ الإسلامُ عددًا من أخلاقِ العربِ مثل المروءة في جملة ما أقرَّه من فضائل الجاهليَّة[١].

نص اللاميَّة[٢]

كتب شيخُ الإسلام ابنُ الورديّ - رحمه الله- لاميَّتَهُ لابنِهِ، يوصيه فيها عندَ مماتِهِ، فقال: [بحر الرَّمَل]

١- اِعْتَــزِلْ ذِكْــرَ الْأَغَــانِي وَالْغَــزَلْ .:. وَقُلِ الْفَصْلَ وَجَانِبْ مَــنْ هَزَلْ

٢- وَدَعِ الــذِّكْــــرَ لِأَيَّـــامِ الصِّــبَا .:. فَــلِأَيَّــامِ الصِّبَــا نَــجْمٌ أَفَــلْ

٣- إِنَّ أَهْنَــأَ عِيـــشَةٍ قَــضَيْتُهَــــا .:. ذَهَــبَتْ لَذَّاتُهَــا وَالْإِثْــمُ حَــلّ

٤- وَاتْــرُكِ الْغَــادَةَ لَــا تَحْفَــلْ بِهَــا .:. تُــمْسِ فِــي عِزٍّ رَفِيعٍ وَتُجَــلّ

---

(١) ينظر: فلسفة الأخلاق في الإسلام، صـــ ٩، بتصرّف.

(١) ديوان ابن الوردي عمر بن المظفر (ت٧٤٩هـ)، حقَّقه وعلَّق عليه وجمع ملحقه: الدكتور/ أحمد فوزي الهيب، ط١، دار القلم- الكويت، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م، صـــ ٤٣٥- ٤٣٩.

٥- وَافْتَكِرْ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي ∴ أَنْتَ تَهْوَاهُ تَجِدْ أَمْرًا جَلَلْ

٦- وَاهْجُرِ الْخَمْرَةَ إِنْ كُنْتَ فَتًى ∴ كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ

٧- وَاتَّقِ اللهَ فَتَقْوَى اللهِ مَا ∴ جَاوَرَتْ قَلْبَ امْرِئٍ إِلَّا وَصَلْ

٨- لَيْسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرُقًا بَطَلًا ∴ إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِي اللهَ الْبَطَلْ

٩- صَدِّقِ الشَّرْعَ وَلا تَرْكَنْ إِلَى ∴ رَجُلٍ يَرْصُدُ فِي اللَّيْلِ زُحَلْ

١٠- حَارَتِ الْأَفْكَارُ فِي حِكْمَةِ مَنْ ∴ قَدْ هَدَانَا سُبْلَنَا عَزَّ وَجَلْ

١١- كُتِبَ الْمَوْتُ عَلَى الْخَلْقِ فَكَمْ ∴ فَلَّ مِنْ جَيْشٍ وَأَفْنَى مِنْ دُوَلْ

١٢- أَيْنَ نُمْرُودُ وَكَنْعَانُ وَمَنْ ∴ مَلَكَ الْأَرْضَ وَوَلَّى وَعَزَلْ

١٣- أَيْنَ عَادٌ أَيْنَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ ∴ رَفَعَ الْأَهْرَامَ مَن يَسْمَعْ يَخَلْ

١٤- أَيْنَ مَنْ سَادُوا وَشَادُوا وَبَنَوْا ∴ هَلَكَ الْكُلُّ وَلَمْ تُغْنِ الْقُلَلْ

١٥- أَيْنَ أَرْبَابُ الْحِجَى أَهْلُ النُّهَى ∴ أَيْنَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْقَوْمُ الْأُوَلْ

١٦- سَيُعِيدُ اللهُ كُلًّا مِنْهُمُ ∴ وَسَيَجْزِي فَاعِلًا مَا قَدْ فَعَلْ

١٧- أَيْ بُنَيَّ اسْمَعْ وَصَايَا جَمَعَتْ حِكَما ∴ خُصَّتْ بِهَا خَيْرُ الْمِلَلْ

١٨- اُطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ فَمَا ∴ أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلْ

١٩- وَاحْتَفِلْ لِلْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَلَا ∴ تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلْ

٢٠- وَاهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ ∴ يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ

٢١- لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ ∴ كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

٢٢- فِي ازْدِيَادِ الْعِلْمِ إِرْغَامُ الْعِدَى ∴ وَجَمَالُ الْعِلْمِ إِصْلَاحُ الْعَمَلْ

٢٣- جَمِّلِ الْمَنْطِقَ بِالنَّحْوِ فَمَنْ ∴ يُحْرَمِ الْإِعْرَابَ بِالنُّطْقِ اخْتَبَلْ

٢٤- أُنْظُمِ الشِّعْرَ وَلَازِمْ مَذْهَبِي ∴ فِي اطِّرَاحِ الرَّفْدِ لَا تَبْغِ النِّحَلْ
٢٥- فَهْوَ عُنْوَانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا ∴ أَحْسَنَ الشِّعْرَ إِذَا لَمْ يُبْتَذَلْ
٢٦- مَاتَ أَهْلُ الْفَضْلِ لَمْ يَبْقَ سِوَى ∴ مُقْرِفٍ أَوْ مَنْ عَلَى الْأَصْلِ اتَّكَلْ
٢٧- أَنَا لَا أَخْتَارُ تَقْبِيلَ يَدٍ ∴ قَطْعُهَا أَجْمَلُ مِنْ تِلْكَ الْقُبَلْ
٢٨- إِنْ جَزَتْنِي عَنْ مَدِيحِي صِرْتُ فِي ∴ رِقِّهَا أَوْ لَا فَيَكْفِينِي الْخَجَلْ
٢٩- أَعْذَبُ الْأَلْفَاظِ قَوْلِي لَكَ خُذْ ∴ وَأَمَرُّ اللَّفْظِ نُطْقِي بِلَعَلْ
٣٠- مُلْكُ كِسْرَى عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةٌ ∴ وَعَنِ الْبَحْرِ اجْتِزَاءٌ بِالْوَشَلْ
٣١- اِعْتَبِرْ (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ) ∴ تَلْقَهُ حَقًّا (وَبِالْحَقِّ نَزَلْ)
٣٢- لَيْسَ مَا يَحْوِي الْفَتَى مِنْ عَزْمِهِ ∴ لَا وَلَا مَا فَاتَ يَوْمًا بِالْكَسَلْ
٣٣- اطْرَحِ الدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا ∴ تَخْفِضُ الْعَالِيْ وَتُعْلِي مَنْ سَفَلْ
٣٤- عِيشَةُ الرَّاغِبِ فِي تَحْصِيلِهَا ∴ عِيشَةُ الْجَاهِلِ فِيهَا أَوْ أَقَلْ
٣٥- كَمْ جَهُولٍ بَاتَ فِيهَا مُكْثِرًا ∴ وَعَلِيمٍ بَاتَ مِنْهَا فِي عِلَلْ
٣٦- كَمْ شُجَاعٍ لَمْ يَنَلْ فِيهَا الْمُنَى ∴ وَجَبَانٍ نَالَ غَايَاتِ الْأَمَلْ
٣٧- فَاتْرُكِ الْحِيلَةَ فِيهَا وَاتَّكِلْ ∴ إِنَّمَا الْحِيلَةُ فِي تَرْكِ الْحِيَلْ
٣٨- أَيُّ كَفٍّ لَمْ تَنَلْ مِنْهَا الْمُنَى ∴ فَرَمَاهَا اللهُ مِنْهُ بِالشَّلَلْ
٣٩- لَا تَقُلْ أَصْلِي وَفَصْلِي أَبَدًا إِنَّمَا ∴ أَصْلُ الْفَتَى مَا قَدْ حَصَلْ
٤٠- قَدْ يَسُودُ الْمَرْءُ مِنْ دُونِ أَبٍ ∴ وَبِحُسْنِ السَّبْكِ قَدْ يُنْقَى الدَّخَلْ
٤١- إِنَّمَا الْوَرْدُ مِنَ الشَّوْكِ وَمَا ∴ يَنْبُتُ النَّرْجِسُ إِلَّا مِنْ بَصَلْ
٤٢- غَيْرَ أَنِّي أَحْمَدُ اللهَ عَلَى ∴ نَسَبِي إِذْ بِأَبِي بَكْرٍ اتَّصَلْ

٤٣- قِيمَـــةُ الْإِنْسَـــانِ مَـــا يُحْسِـــنُهُ ∴ أَكْثَـــرَ الْإِنْسَـــانُ مِنْـــهُ أَمْ أَقَلْ

٤٤- اُكْـــــتُمِ الْـــأَمْرَيْنِ فَقْـــرًا وَغِنًـــى ∴ وَاكْسَبِ الْفَلْسَ وَحَاسِبْ وَمَنْ بَطَلْ

٤٥- وَادَّرِعْ جَـــدًّا وكَـــدًّا وَاجْتَنِـــبْ ∴ صُحْبَةَ الْحَمْقَى وَأَرْبَـــابَ الخَلَلْ

٤٦- لَا تَخُضْ فِي حَـــقِّ سَادَاتٍ مَضَوْا ∴ إِنَّـــهُمْ لَيْسُوا بِـــأَهْلٍ لِلزَّلَـــلْ

٤٧- وَتَغَاضَ عَـــنْ أُمُورٍ إِنَّـــــهُ لَـــــمْ ∴ يَـــفُزْ بِالْحَمْدِ إِلَّـــا مَـــنْ غَفَـــلْ

٤٨- لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِـــدٍّ وَلَـــوْ ∴ حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَاسِ الْجَبَـــلْ

٤٩- مِلْ عَـــنِ النَمَّـــامِ وَازْجُـــرْهُ فَمَـــا ∴ بَلَّغَ الْمَـــكْرُوهَ إِلَّا مَـــنْ نَقَـــــلْ

٥٠- دَارِ جَـــارَ السُّـــوءِ بِالصَّـــبْرِ وَإِنْ ∴ لَـــمْ تَجِدْ صَبْرًا فَمَا أَحْلَى النُّقَلْ

٥١-جَانِبِ السُّـــلْطَانَ وَاحْـــذَرْ بَطْشَـــهُ ∴ لَا تُـــعَـــانِدْ مَنْ إِذَا قَـــالَ فَعَـــلْ

٥٢- لَا تَلِ الْأَحْكَـــــامَ إِنْ هُـــمْ سَـــأَلُوا ∴ رَغْـــبَةً فِيكَ وَخَالِفْ مَنْ عَـــذَلْ

٥٣- إِنَّ نِصْفَ النَّـــاسِ أَعْـــدَاءٌ لِمَـــنْ ∴ وَلِـــيَ الْأَحْكَامَ هَـــذَا إِنْ عَـــدَلْ

٥٤- فَهْوَ كَـــالْمَحْبُوسِ عَـــنْ لَذَّاتِـــــهِ ∴ وَكِلَا كَفَّيْهِ فِـــي الْحَشْـــرِ تُغَـــلْ

٥٥- إِنَّ لِلنَّقْصِ وَالِاسْتِثْقَالِ فِـــي لَفْظَةِ ∴ الْقَاضِـــــي لَوَعْظًـــا أَوْ مَثَـــلْ

٥٦- لَا تُـــوَازَى لَـــذَّةُ الْحُكْـــمِ بِـــــمَا ∴ ذَاقَهُ الشَّخْصُ إِذَا الشَّخْصُ انْعزَلْ

٥٧- فَالْوِلَايَـــاتُ وَإِنْ طَابَـــتْ لِمَـــنْ ∴ ذَاقَـــهَا فَالسُّمُّ فِـــي ذَاكَ الْعَسَلْ

٥٨- نَصَبُ الْمَنْصِبِ أَوْهَـــى جَلَـــدِي ∴ وَعَنَائِـــي مِنْ مُـــدَارَاةِ السَّـــفَلْ

٥٩- قَصِّرِ الْآمَـــالَ فِـــي الـــدُّنْيَا تَفُـــزْ ∴ فَدَلِيـــلُ الْعَقْلِ تَقْصِـــيرُ الْأَمَـــلْ

٦٠- إِنَّ مَنْ يَطْـــلُبُهُ الْمَـــوْتُ عَلَـــى ∴ غِـــرَّةٍ مِنْـــهُ جَدِيرٌ بِالْوَجَـــلْ

٦١- غِبْ وَزُرْ غِبًّا تَـــزِدْ حُبًّـــا فَمَـــنْ ∴ أَكْثَـــرَ التَّرْدَادَ أَقْـــصَاهُ الْمَلَـــلْ

٦٢- لَا يَضُـــرُّ الْفَضْـلَ إِقْلَـالٌ كَمَـا ∴ لَا يَضُرُّ الشَّمْسَ إِطْبَاقُ الطَّفَـلْ
٦٣- خُذْ بِنَصْلِ السَّيْفِ وَاتْـرُكْ غِمْـدَهُ ∴ وَاعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَى دُونَ الْحُلُلْ
٦٤- حُبُّـكَ الْأَوْطَـانَ عَجْـزٌ ظَـاهِرٌ ∴ فَـاغْتَرِبْ تَلْقَ عَنِ الْأَهْلِ بَـدَلْ
٦٥- فَبِمُكْثِ الْمَـاءِ يَـبْقَى آسِنًـا ∴ وَسَـرَى الْبَدْرِ بِهِ الْبَدْرُ اكْتَمَلْ
٦٦- أَيُّـهَا الْعَائِـبُ قَـوْلِي عَبَثًـا ∴ إِنَّ طِيـبَ الْوَرْدِ مُؤْذٍ لِلْجُـعَلْ
٦٧- عَدِّ عَنْ أَسْـهُمِ قَـوْلِي وَاسْـتَتِرْ ∴ لَا يُصِيـبَنَّكَ سَهْـمٌ مِـنْ ثُعَلْ
٦٨- لَا يَـغُرَّنَّكَ لِـينٌ مِـنْ فَتًـى ∴ إِنَّ لِلْحَيَّـاتِ لِينًـا يُـعْتَـزَلْ
٦٩- أَنَا مِثْـلُ الْمَـاءِ سَـهْلٌ سَـائِغٌ ∴ وَمَتَـى أُسخِـنَ آذَى وَقَتَـلْ
٧٠- أَنَـا كَـالْخَيْزُورِ صَـعْبٌ كَسْـرُهُ ∴ وَهْوَ لَدِنٌ كَيْفَ مَا شِئْتَ انْفَتَـلْ
٧١- غَيْرَ أَنِّي فِي زَمَـانٍ مَـنْ يَكُـنْ ∴ فِيهِ ذَا مَالٍ هُوَ الْمَوْلَى الْأَجَـلْ
٧٢- وَاجِـبٌ عِنْـدَ الْـوَرَى إِكْرَامُـهُ ∴ وَقَلِيـلُ الْمَـالِ فِيهِمْ يُسْـتَقَلْ
٧٣- كُـلُّ أَهْـلِ الْعَصْـرِ غُمْـرٌ وَأَنَـا ∴ مِنْهُـمُ، فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الْجُمَلْ
٧٤- وَصَـلَاةُ اللهِ رَبِّـي كُلَّمَـا ∴ طَلَـعَ الشَّمْسُ نَهَـارًا وَأَفَـلْ
٧٥- لِلَّـذِي حَـازَ الْعُلَـا مِـنْ هَاشِـمٍ ∴ أَحْمَدَ الْمُخْتَارِ مَنْ سَـادَ الْأُوَلْ
٧٦- وَعَلَـى آلٍ وَصَـحْبٍ سَـادَةٍ ∴ لَيْسَ فِيـهِمْ عَاجِزٌ إِلَّا بَطَـلْ

*****

المبحث الأول

مفتتح اللامية

تضمَّنت قصيدةُ ابنِ الورديِّ جملةً كبيرةً من التوجيهاتِ الأخلاقيَّة التي يجب على الإنسان أن يتخلق بها، ويتعامل بها مع مَنْ حولَه من بني جنسه.

وقد استهلَّ ابنُ الورديّ قصيدتَه بالنُّصح بالأمرِ المباشر الصريح الذي توالتْ صيغتُه، ممَّا جعل نبرتَه عاليةً واضحةً في الأسماع والأذهان من بداية القصيدة، وهذا ما يجعلُ المخاطب مؤهلًا من أوَّل الأمرِ لتلقِّي النُّصح والانصياع له، كما أشار إلى ذلك ابنُ رشيق القيروانيِّ بقوله: "فإنَّ الشعرَ قفلٌ أوَّلُهُ مفتاحه، وينبغي للشَّاعر أنْ يُجوِّدَ ابتداءَ شعرِهِ، فإنَّهُ أوَّلُ ما يقْرعُ السَّمعَ منه، وبه يُستدلُّ على ما عندهُ في أوَّلِ وهلةٍ"(١)، ومقامُ استخدام الأمر للنُّصحِ والإرشادِ والتعليمِ والتوجيهِ، وهذا من براعة الاستهلال وحسن الابتداء، فقال ابنُ الورديّ:

١- اعْتَزِلْ ذِكْرَ الْأَغَانِي(٢) وَالْغزَلْ .·. وَقُلِ الْفَصْلَ وَجَانِبْ مَــنْ هزَلْ

ينصحُ ابنُ الورديّ هنا بأن يجتنبَ الإنسانُ ذكرَ الغناء، وذكرَ الفاتنات الغانيات والحديث عنهنّ، وأنْ يتَّبع الحقَّ في مقاله، بالقول الفصل، وهو القول القاطع الحكيم العدل الذي ليس فيه مرواغةٌ ولا مداهنةٌ، وأن يبتعدَ عن صاحب الكلام الهزل الذي لا منفعة تُرْجَى من ورائِه.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ١/ ٣٨٩.

(٢) الأغنية: الغِناءُ، والجمع الأغانيُّ. تقول منه: تَغَنَّى وغَنَّى، بمعنًى. والغَناء، بالفتح: النفع. والغِناءُ بالكسر من السماع، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي إسماعيل بن حمَّاد الجوهريّ الفارابي (٣٩٣هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

واستهلال القصيدة بالتَّصريع الذي "يحسن في أول القصيدة؛ ليميِّز بين الابتداء وغيره، ويُفهم قبل تمام البيت رويُّ القصيدة وقافيتُها"(١)، وهو مذهب الشعراء الذين "جعلوا التصريعَ في مهمَّات القصائد فيما يتأهَّبُون له من الشعر، فدلَّ ذلك على فضل التَّصريع"(٢).

وعبَّر بالفعل **(اعْتَزِلْ)** الذي يشير بدلالته إلى الابتعادِ عن الأخلاقِ السيئةِ، وتركِها والتخلِّي عنها، وعبَّر بـــ(اعْتزِلْ) دون (اجتنِبْ، أو اتْرُكْ)؛ لأنَّ الاعتزالَ بابٌ جامعٌ لكلِّ أنواعِ العُزْلةِ والتَّرْكِ والاجتنابِ والبُعْد، وهو أقوى منها دلالةً؛ لكونه يكونُ "بالبدنِ أو بالقلبِ"(٣)، بالبدنِ حسيًّا، وبالقلبِ معنويًّا، والعزلةُ أشبه بالاعتكاف، ففيها خلوصٌ عن المعصية، بخلافِ غيرِها.

وصيغةُ **(اعْتَزِلْ)** على وزن (افْتعل) أي اطْلُبْهُ وتكلَّفْهُ من نفسِكَ وتطرَّق إلى كلِّ ما يجلبُ لك هذه العُزْلةَ والبعدَ بكلِّ معانيه النفسيَّة والقلبيَّة والوجدانيَّة؛ لحزمِ النفس وعزلِها عن ذكْرِ الأغاني.

وقد أوقع الاعتزالَ المطلوبَ على ذكر الأغاني في حدِّ ذاته، وليس على الأغاني نفسِها، وهو يطلب من المخاطب مقاطعة مجرد الذكر، وأنْ يخطر ذكرها بباله أو على قلبه، وذلك لأنَّ الذكر إنما يأتي من داخل النفْسِ، ومن اتباعِ هواها وميلِها، حيثُ تلهُو وتنسَى فضائلَ الأخلاقِ ومعاليَ الأمورِ.

وعرَّف (الأغاني) بأل الجنسية مع جمعها جمعَ تكسيرٍ للكثرة؛ ليشمل أمره باعتزال ذكرِها كلَّ ما قدْ يطرأ ذكرُه على قلبِ المخاطب، وكذا عرَّف

---

(١) سر الفصاحة، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت ٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، صـــ ١٨٩.

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ١/ ١٧٦.

(٣) المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالرَّاغب الأصفهانيّ (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ط: ١، ١٤١٢ هـ، صـــ ٣١٧.

(الغزل) بأل الحقيقة، على سبيل تخليةِ القلوبِ ممَّا قد يشغلها أو يدنِّس طهرَها، وذلك قبل أن يبدأ في الحثِّ على مكارم الأخلاق التي سيشير إليها لاحقًا، وهذا من باب التَّخْلِيَةِ قَبْلَ التَّحْلِيَةِ.

وقد شارك الأمرَ بالاعتزالِ الأمرُ بقولِ الفصل **(وَقُلِ الْفَصْلَ)**، وهو القول القاطع الحكيم؛ ليصرف اللسانَ مع انصرافِ القلبِ إلى الحقِّ والجدِّ دون اللهو والهزل، واستخدم المصدر **(الْفَصْلَ)** عوضًا عن اسم الفاعل **(الْفَاصِلِ)**، مع حذفِ الموصوفِ **(الْقَوْلَ)**، وإقامة الصفةِ مقامَه **(الْفَصْلَ)**، على سبيل المبالغة في تصوير المعنى، وكأنَّ القولَ صار فَصْلًا بذاته.

وقولُ الفصلِ لا يكون إلَّا بمفارقة **(مَنْ هزل)**، فنرى تِباعًا أمرًا آخرَ بمجانبة مَنْ يُعْرفُ بهزله **(وَجَانِبْ مَــنْ هَزَلْ)**، وكأنَّه (أي الهزل) الصفة التي لازمته حتَّى عُرِفَ بها؛ ولذا استخدم الاسم الموصول مع صلته، فليس المراد مجانبةَ مَنْ كانَ الهزلُ له عارضًا، وإنما الذي عُرِفَ به ولازمه؛ ولذا أتى بجملة الصلة ماضويَّةً؛ ليصوِّر في الأذهان تحقُّقَ وقوع ذلك ممَّنْ يُطلَبُ مجانبتُهُ لا غيره، والتحاشي عنه.

وفي الأمر بـــ**(اعْتَزِلْ وَقُلْ)** صرامةٌ وحزمٌ، فلا يشوبُه عوارضُ عن نفاذِهِ وفعله، إذ بمجرد التلقِّي تكون الاستجابة، والأخذ بمضمونه يتوجَّه إليه الشعورُ والحسّ، ويمضي في الشروع فيه بلا هوادةٍ ولا تردُّدٍ.

وفي الأمر بـــ**(جَانِبْ)** مراعاةٌ لمقتضى الطلب من المخاطب نفسه؛ لأنَّ في التخلِّي عن هوى النفسِ صعوبةً في بدايته، فكانت الألف في **(جانب)** لملاينةِ القلبِ وجهادِه في التخلِّي والبعد عمَّن هزل؛ لما فيه من الأذى والضرر والبعد عن الصواب.

وممَّا أيَّد المعنى وقوَّاه ما يُلْحق بالطباق بين كلمتي: (الفصل والهزل)، مما دعم المعنى وقوَّاه وأكَّده.

ولا يخفى ما في أصوات الحروف (العين، والغين، والذال، والزاي، واللام) من تناغمٍ صوتيٍّ ينسج المعاني في نفس المتلقِّي، فتوافق العين والغين والذال والزاي في الرسم وجزءٍ من النطق ملحوظٌ في السمع، ومُنشئٌ لإيلافِ النفسِ للمعنى الذي تؤديه.

وانفرادُ اللام وتكرارها بالسكون يصف حالَ المتلقِّي لنفسِه عند امتثاله لمضمون الأمر، فيجعل حالَهُ حاضرًا في ذهنه كأنَّه حاصلٌ ماضٍ، فيكون له أثرٌ في دفع نفسِهِ إلى تحقيق هذا الأمر، ووافق سكونُ اللامِ الأمرَ في النفاذِ والقبول في النفسِ.

هذا والكلام مشعرٌ باتِّباع الحقِّ وتجنُّبِ الهزْلِ مطلقًا، وإن كان ما قبله وما بعده يوحي باتصاله بذكر الحُبِّ والغزلِ وما يتعلَّق بهما، فهو يُتبع ذلك بطلبِ تركِ هذا الذكرِ لأيَّام الصِّبا التي ولَّت، وقد صوَّر تولِّيها بقوله: **(فَلِأَيَّامِ الصِّبَا نَجْمٌ أَفَلْ)**، على سبيل الاستعارة التمثيليَّة، حيث شبَّه زوالَ أيامِ الصِّبَا وانتهاءَها بمَا فيها من زهْوٍ وإشْرَاقاتٍ بأُفُولِ النَّجْمِ عندما يزول وقتُهُ وتنتهي إشعاعاتُه.

وذلك قوله:

٢- وَدَعِ الذِّكْرَ لِأَيَّامِ الصِّبَا .: فَلِأَيَّامِ الصِّبَا نَجْمٌ أَفَلْ

٣- إِنَّ أَهْنَأَ عِيشَةٍ قَضَيْتُهَا .: ذَهَبَتْ لَذَّاتُهَا وَالْإِثْمُ حَلْ

يأمر بأنْ يترُكَ الإنسانُ أيامَ الصبا وراءَ ظهرِهِ، ويخلِّيها تمامًا؛ لأنَّها مرحلةٌ مرتْ وانقضتْ، وهي مرحلةُ لهوٍ ولعبٍ، ويشبه هذه المرحلة بأنَّها كانتْ تُشبِهُ النجمَ اللامعَ الساطعَ في السَّماء، ثم سُرعانَ ما غاب هذا النجمُ وأفل، ولنْ يعودَ مرةً أخرى، ويستعينُ على سرعةِ انقضاءِ هذه الأيَّامِ بسرعةِ زوالِ النجمِ.

ويقول: إنَّ الإنسانَ الذي عاش عيشةً يحسبها هنيَّةً سعيدةً، ولم يُقدِّرْ فيها المسؤوليَّة، وأباح لنفسه الملذَّاتِ، قد انتهتْ هذه الفترةُ بما فيها، لكنَّ الإثمَ الذي نتج عنها حضر وتلبَّس بصاحبه، ولا يخفى هنا أنَّ الشاعرَ استعانَ بالتشخيص على طريق الاستعارة المكنية في قوله: **(ذَهَبَتْ لَذَّاتُهَا، وَالْإِثْمُ حَلَّ)** بما يمنحُ الصورةَ صفة الحركيَّة.

ثمَّ كأنَّه لحظ أنَّ في كلامه ما يثير التساؤلَ في نفس السامع، ويجعله غيرَ مقتنعٍ بما قاله، فأتى بالبيت التالي مؤكَّدًا بـــ(إنَّ) في قوله:

٤- إِنَّ أَهْنَأَ عِيشَةٍ قَضَيْتُهَا ∴ ذَهَبَتْ لَذَّاتُهَا وَالْإِثْمُ حَلْ

فكأنَّه يجيب عن سؤالٍ (ولماذا أدع الذكر لأيام الصبا؟)، فهو يبرِّر ذلك بانقضاءِ أهنأ عيشةٍ وذهاب لذَّتها، وبقاء ما اقترفه فيها من إثمٍ.

واستخدم أفعل التفضيل (أهنأ) ليوضِّح أنَّ أفضل ما قد يستمتع به مصيره إلى ذهابٍ.

واستخدم الفعلين **(قَضَيْتُهَا- ذَهَبَتْ)** متتاليين، وكأنَّ في النفس معنى الفناء والزوال، وأيَّد ذلك بالمقابلة بين **(ذَهَبَتْ لذَّاتُها)**، **(والإثْمُ حَـلّ)**، وزاد هذه المقابلةَ قوةً بمجيء الجملة الأولى **(ذَهَبَتْ لذَّاتُها)** فعليَّةً، بينما عدل إلى الاسميَّة في الجملة الثانية؛ ليفيدَ استمرارَ ودوامَ وجودِ الإثم، فهو لا يفارق صاحبَه، وذلك مع تقديم المسند إليه (الإثم) على المسند الفعليّ (حلَّ)، حيث أفاد تقويةَ الإسناد وتقريرَه.

ثم يقول:

٥- وَاتْـرُكِ الْغَادَةَ[1] لَا تَحْفَلْ بِها ∴ تُـمْسِ فِـي عِزٍّ رَفِيعٍ وَتُجَلْ

٦- وَافْتَكِرْ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي ∴ أَنْـتَ تَـهْوَاهُ تَجِدْ أَمْـرًا جَلَلْ

(١) الغادَةُ: الْفَتَاةُ النَّاعِمَةُ اللَّيِّنَةُ. لسان العرب، مادة (غيد).

وينصح بألَّا ينشغلَ الإنسانُ ولا يهتمَّ بالنساء، وخاصةً المرأة الناعمة اللينة، التي تسلبُ لُبَّ الرِّجالِ، فإنَّك إنْ فعلتَ ذلك فستحقِّقُ العزَّ العالي والشرف الغالي، ما دمْتَ لم تقع فريسةً لهذا الصِّنْف من النساء، و**(تُجَلُّ)** يعني: يُعَظِّمُكَ النَّاسُ؛ لأنَّكَ لم تُفتن بمغريات النساء.

ويقول بأنَّ الإنسانَ إذا استماله شيءٌ واستهواه وأسره أسرًا، فلا بدَّ له من أنْ يستخدمَ عقلَهُ وتفكيرَهُ وحكمتَهُ في هذا الشيء؛ لأنَّه قد يكون نهاية هذا الشيء أمرًا عظيمًا على غيرِ ما يحبه الإنسان ويهواه.

وقد جمع بين الأمر (اترك) والنهي (لا تحفل)، وأل في الغادة أل الحقيقة أو العهد الخارجيّ، فهو يريد واحدًا من الجنس يمثِّل الجنسَ كلَّه، واختار أعلى أو أكثر ما يمثِّلُ إغراءً في الجنس وهو الغادة؛ حتَّى يندرج تحت الأمر بتجنُّب كلِّ جنس النساء.

والنَّهيُ عن الاحتفال وترك الوصل بين الأمر والنهي **(واتــرُكِ الغادَةَ لا تحفلْ بها)** لشبه كمال الاتصَّال، حيث نزلت الجملة الثانية منزلة التبيين للجملة الأولى؛ لتأكيد المعنى.

وقوله: **(وافْتَكِرْ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي أَنــْتَ تــَهْوَاهُ)** أي تفكَّر في أكثرِ ما يشدُّكَ لمُنتَهى حُسْنِ الَّذِي تهواه، وقد أتى بجملة الصِّلة **(الذي أنــتَ تــهواهُ)** اسميَّةً، والمسند فيها مضارعٌ، وهنا إعادةٌ للإسناد، فلم يقل: (الذي تهواه)، وإنما أعاد الإسناد مرةً أخرى بقوله: **(الذي أنــتَ تــهواهُ)**، وهذا نوعٌ من التقرير مع استحضار الصورة في ذهن المخاطب.

وفي التعبير بالاسم الموصول وعدم الإفصاح عن الشيء بعينه؛ لتذهب النفسُ كلَّ مذهبٍ، كلٌّ على حسب ما يميل له، وفي ذلك ما فيه من بلاغة التعبير بالاسم الموصول دون غيره.

وتنكير (**أمــرًا جَلَلْ**[١]) للتحقير؛ لأنَّ كلَّ ما يتعلَّق به المرءُ في الدنيا لا يساوي عندَ الله جناحَ بعوضةٍ.

٧- واهجُرِ الخمرةَ[٢] إنْ كنتَ فتًى ∴ كيفَ يسعى في جُنونٍ مَنْ عَقَلْ؟

وبعد أنْ وصَّى الشاعرُ بعدم الافتتان بالنساء، يأمر أمرًا صريحًا بترك معاقرة الخمر وما يندرج تحتها من مفترات الجسم ومغيِّبات العقل، وخاصةً في مرحلة الفتوة، وهي أوَّل مرحلةِ الشبابِ إلى أوَّلِ مرحلةِ الرُّجولة، ثم يلجأ إلى الاستفهامِ الإنكاريِّ التعجبيِّ التوبيخيِّ التهكميِّ، ويتساءل كيف يلجأ العاقل الفطن ويسعى إلى هذه الخمر التي يتسبَّبُ عنها الجنون وفقدان العقل وذهاب التركيز؟! وعبَّر بـــ(**الخمرة**)، وهي واحدة الخمر؛ لأنَّ تركَ المفرد ينفي الجميع.

وهنا يُواصِلُ نُصْحَهُ بتخلية القلب من كلِّ ما قد يُدنِّسُهُ، فيأمر المخاطب بأنْ يقطع أيَّ صلةٍ بالخمر، بأنْ يهجرَها هجرًا، وعبَّرَ بالهجرِ دون التَّرك مثلًا؛ لأنَّ تركَ الخمرِ من الأمور الصعبِ تحقيقُها، وتحتاجُ إلى مجاهدةِ النفسِ لهجرها والتخلُّص منها، فالتركُ ذهابٌ من غير رجعةٍ، بخلاف الهَجر، فقد يعقبه رجعةٌ، "فالصِّلةُ بَيْنَ الهَجْرِ والتَّركِ عُمومٌ وخُصوصٌ مُطلَقٌ، والتَّركُ أعَمُّ، فالتَّركُ مُفارَقةٌ دائمةٌ، وأمَّا الهَجْرُ فلا يلزَمُ دوامُه، بل منه الهَجْرُ الوَقتيُّ"[٣]، وقد دلَّت هذه الجملة الإنشائيَّة على جواب الشرط المحذوف في

---

(١) جَلَل: أَمرٌ جَلَلٌ، أَي عَظِيمٌ، وَأمرٌ جلَلٌ: يسيرٌ، وَهُوَ من الأضداد. جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـــ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

(٢) الخَمْرُ: ما خَمَر العَقْلَ، وهو المسكر من الشراب، وهي خَمْرَةٌ وخَمْرٌ وخُمُورٌ مثل تمرة وتمر وتمور. اللسان: مادة (خمر).

(٣) الموسوعة الفقهيَّة، إصدار وزارة الشئون الإسلاميّة- الكويت، ٤٢/ ١٦٣، ط١، ١٤٣٥هـــ- ٢٠٠٤م.

قوله: **(إنْ كنتَ فتًى)**، وقد أدَّى هذا الشرط وظيفة الترغيب، وكأنه يرى أنَّ هذا الفعل (هجر الخمرة) مما يحتاج لعزم الفتوة وقوة الشباب على أكمل صورها؛ ولذا نكَّر **(فتًى)** على سبيل التعظيم والتفخيم لأمر هذا الذي يستطيع أن يغالب نفسَه وهواها في أمر الخمر.

واستخدم في الشرط **(إنْ)**؛ ليبيِّن أنَّ ذلك أمرٌ يعزُّ وجودُهُ، وذلك كلُّهُ مما يُحرِّكُ في النفوس التطلُّع والتشوُّف لنيل هذه المنزلة، والفوز بهذه الدرجة.

وتأكيدًا لهذا المعنى في النفوس يُلقِي استفهامًا إنكاريًّا توبيخيًّا يطعنُ به في عقل مَنْ يقرب الخمرَ، بقوله: **(كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ؟)**، مستخدمًا الفعل المضارع **(يَسْعَى)**؛ ليستحضر هذه الصورة المثيرة للدهشة والتعجُّب، خاصةً مع الطباق بين **(جُنُونٍ – عَقَلْ)**، مع تقديم **(فِي جُنُونٍ)** على **(مَنْ عَقَلْ)**؛ لكونه أفعلَ في إثارة النفوس للهربِ من الخمرِ، وما تجلبه على الإنسان، فذهاب العاقل إلى الجنون شيءٌ في عكسِ موضعِهِ، يُحدِثُ اضطرابًا في النفسِ، فتخرج من الإنكار إلى التعجُّب والتوبيخ؛ لأنه غيرُ مقبولٍ عقلًا ولا شعورًا، ولا تصدِّقُهُ النفسُ، ولا تتجهُ إليهِ، فهو من النجاةِ إلى الهلاكِ، فجاء الإنكارُ مقامَ التصديقِ، وجاء الإنشاءُ محلَّ الخبر، فكانت بلاغتُهُ أوقعَ أثرًا، وأعمَّ نفعًا، وأقوى مسلكًا في نفسِ المتلقِّي.

ويواصلُ نُصحَهُ، فيقول:

٨- واتَّــق اللهَ فتــقوى اللهِ مــا .:. جاورتْ قلبَ امرئٍ إلا وَصَــلْ

٩- ليسَ مــنْ يقطعُ طُرقًا بَطلًا[1] .:. إنــما مــنْ يــتَّقي اللهَ البَطَــلْ

ويأمر بالخوف من الله تعالى والوجل منه بلزوم طريق الاستقامة بتقوى الله تعالى، التي تعني الخوف من الجليل، والعمل بما في التنزيل، والرضا

(١)**البَطَل**: الشجاع، وسُمّي **بَطَلًا** لأنه **يُبْطِل** العظائم بسَيْفه فيُبَهْرجُها، وقيل: سمي **بَطَلًا** لأَن الأَشدّاءِ **يَبْطُلُون** عنده، وقيل: هو الذي **تبطل** عنده دماء الأَقران فلا يُدْرَك عنده ثَأْر من قوم **أَبْطال**. اللسان: (بطل).

بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل، والتقوى لا تلازم قلب إنسان وعقله إلا أوصلته إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة.

والبيت السابع من باب "التَّحْلِيَة بَعْدَ التَّخْلِيَة"، وذكره اسم الجلالة **(الله)** وهو علمٌ على الذات العليَّة؛ لتربية المهابة في النفوس.

ويستعين الشاعر هنا بالاستعارة المكنية، حيث شخَّص التقوى، وجعلها تقوم بالجوار، واختار لها الفعل (جَاوَرَ)؛ للإشعار بأنها تلازمُ صاحبَها كملازمة الجار لجاره.

وقوله: **(فتــقوى اللهِ مــا جاورتْ قلبَ امرئٍ إلا وَصَلْ)** تعليلٌ بليغٌ بالقطعِ بوصولِ القلبِ إلى كلِّ معاني السعادةِ والطمأنينة في الدنيا والآخرة، وذلك من خلال القصر بالنفي والاستثناء بـــ(ما وإلا)، فقصر وصول قلب المرء إلى مراده ومبتغاه، على مجاورة التقوى للقلب، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ تقريرًا لتحقيق معنى السعادة بمجاورة التقوى للقلب، وتثبيتًا للمعنى في نفس المتلقِّي؛ ترغيبًا في حصولِهِ في قلبِهِ، واستنهاضًا له على تقوى الله، وتقريبها من قلبِهِ.

والتعبير بلفظ **(امْرِئٍ)** دون غيره؛ لكونِهِ أعمَّ من رجلٍ وأحدٍ مثلًا، والتقوى لا تكون إلَّا مع المرء من المروءة، كأنَّ التقوى لا تأتي إلَّا مع مروءة القلب، "والمرء يفيد أنه أدب النفس؛ ولهذا يقال المروءة أدبٌ مخصوصٌ"[(١)].

وأعاد ذكر اسم الجلالة مرَّتين في سياق القصر، الذي تدرَّج فيه من التقرير أولًا بالنفي والاستثناء في قوله: **(فَتَــقْوَى اللهِ مَــا جَاوَرَتْ قَلْبَ امْرِئٍ**

(١) معجم الفروق اللغوية، الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري [كان حَيًّا ٣٩٥ هـــ]، وجزء من كتاب «فروق اللغات» لنور الدين بن نعمة الله الجزائري (ت ١١٥٨ هـــ)، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي بـــ (قُمّ)، رَتّبه وبَوّبه على حروف الهجاء: الشيخ بيت الله بيات، ط١، ١٤١٢هـــ، صـــ٢٤٩.

إِلَّا وَصَلْ) إلى التأكيد بـــ(إنما) التي تفيدُ الإثباتَ للشيء، والنفيَ عن غيره دفعةً واحدةً، في قوله: **(إِنَّـــمَا مَـــنْ يَـــتَّقِي اللهَ الْبَطَـــلْ)**، متخذاً من هذا القصر دليلًا وتعليلًا لثمرة ملازمة تقوى الله تعالى، وأن هذه التقوى هي سمة الرجل القوي الشجاع، الذي لا يخاف إلا من الله تعالى وحده، وليس البطل هو الذي يقطع المسافات الواسعة والمساحات الشاسعة دلالة على نشاطه وقوته.

وتعريةُ الفعلِ**(وَصَلْ)** عن ذكرِ متعلِّقِهِ فيه حثٌّ كذلك على التقوى، وترغيبٌ فيها، فمنْ يتَّقِ اللهَ –سبحانه وتعالى– يصلْ إلى كلِّ ما أراده وابتغاه، ويصلْ وصولًا أكيدًا، ويصلْ وصولًا رفيعًا (إلى رضا الله –تعالى–، أو إلى الجنَّة، أو إلى مطلوب العقلاء وسعادة الأبد)(١).

وبين شطْرَي البيتِ طباقٌ بالسَّلْبِ **(لَيْسَ مَـــنْ يَقْطَعُ طُرُقًا بَطَلًا، إِنَّـــمَا مَـــنْ يَـــتَّقِي اللهَ الْبَطَـــلْ)**، يزيد في إيضاحِ الْمَعْنى وإبرازِه.

وتنكير **(طُرُقًا)** للتهوين والتحقير من شأنِ أيِّ طريقٍ دون طريق التقوى، وهو طريق الله عزَّ وجل.

وكلمة **(الْبَطَل)** غالبًا ما تُستخدَمُ في الحرْبِ الحسيَّة، وهنا اسْتخْدمها ابنُ الورديِّ في الحربِ المعنويَّة بين الإنسان ونفسِهِ وهواهُ.

ومن جملة التَّقْوَى كذلك قولُ ابنِ الورديِّ:

١٠- صَدِّقِ الشَّرْعَ وَلَا تَرْكَنْ إِلَى ∴ رَجُـــلٍ يَـــرْصُدُ فِي اللَّيْلِ زُحَلْ

١١- حَارَتِ الْأَفْكَارُ فِي حِكْمَةِ مَنْ ∴ قَـــدْ هَـــدَانَـــا سُبْلَنَا عَزَّ وَجَلْ

---

(١) التحفة النديَّة في شرح اللامية الورديَّة، لشيخ الإسلام نجم الدين الغزي العامريّ المتوفَّى (١٠٦١هـــ)، تحقيق: د/ هناء سبيناتي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة– دمشق، ط١، ٢٠١٢م، صـــ ٧٥.

ويأمُرُ الشاعرُ باتِّبَاعِ أوامِرِ الشَّرْعِ والدينِ الحنيفِ بتصديقِها والإذعانِ إليها واتِّخَاذِها منهجًا في الحياة، وينهَى عن الركون إلى المُنَجِّمِينَ الذين يسيرون خلفَ النجوم والأفلاك، ورمز إلى ذلك بالنصِّ على النَّجْم **(زُحَل)** الذي هو أحد الكواكب الشمسية المعروفة، على طريق الكناية عن الكَهَنَةِ والمُشَعْوِذِين.

وقوله: **(صدِّق)** فعل أمر خرج من معناه الحقيقي إلى معنًى مجازيٍّ، وهو النُّصْحُ بصدق اليقين في الله –تعالى– وأقداره، والتحلِّي بخالصِ الإيمان.

والنَّهي بعد الأمر **(ولا تركنْ)** تأكيدٌ على إخلاص الإيمان لله وحدَهُ دونَ التعلُّق بالبشر.

والوصْلُ بالواو عدولٌ عن الأصل؛ لمزيدٍ من تأكيد الارتباط بين الجملتين **(صَدِّق الشَّرْعَ، وَلَا تَرْكَنْ)** لأهميَّة ما ورد فيهما من الطلب؛ لأنَّه من الأسس المهمة في بناء عقيدة الإنسان، ومن ثمَّ بناء منظومتِهِ الخُلُقِيَّةِ.

والركونُ هنا اعتمادٌ في غيرِ محلِّهِ، وفي النَّهيِ عنهُ توجيهٌ بالبُعْدِ عن أسبابِ الشِّركِ أو التعلُّق بغير الله سبحانه وتعالى، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ**﴾[سورة هود: ١١٣]، و"الرُّكُون من أركنه إذا أمالَه، والنَّهى متناولٌ للانحطاطِ في هواهم، والانقطاع إليهم، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم، والرضا بأعمالهم، والتشبُّه بهِم، والتَّزَيِّي بِزِيِّهِمْ، ومدّ العين إلى زهرتهم[(١)]".

وجملة **(حارتِ الأفكارُ)** استئنافٌ بيانيٌّ يُبيِّنُ فيها الشاعرُ عجزَ الأفكار وحيرتَها حيرةً شديدةً في حكمة المولى –عز وجل– في تقسيم الأقدار على

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، ضبطه وصححه ورتّبه: مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث بالقاهرة– دار الكتاب العربي ببيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، ٢/ ٤٣٣.

المخلوقين، وكأنه يُلَمِّحُ لقول الله –تعالى– الذي ذكره بعد ذلك: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وهو سبحانه الذي وفَّقنا إلى السُّبُل المرضية التي دلَّنا عليها الشرعُ الحنيفُ.

والجملة كذلك **(حَارَتِ الْأَفْكَارُ)** تأكيدٌ على عظمة الله –سبحانه وتعالى–، وتأكيدٌ أيضًا على إخلاص التعلُّق به وحده.

وفي قوله: **(حَارَتِ الْأَفْكَارُ)** استعارةٌ مكنيَّةٌ تُصوِّرُ حركةَ العقلِ بأشخاصٍ تموج وتهيج دون الوصول إلى حكمةٍ أو طريق هدايةٍ تهتدي به، وإثباتُ الحيرة إلى الأفكار استعارةٌ تخييليَّةٌ هي قرينة المكنيَّة.

وأل في قوله: **(الأفكارُ)** تفيد الاستغراق، واسم الموصول وصلته في قوله: **(مَنْ قَـدْ هَدَانَا سُبْلَنَا)** كنايةٌ عن الله –عزَّ وجلَّ–، والغرضُ البلاغيُّ منها تأكيدُ عجز البشر واحتياجهم الدَّائم إلى الله عزَّ وجلَّ.

ومما أظهرَ هذا التأكيدَ وقوَّاهُ جملة **(عزَّ وجَلْ)**، وهي تذييليَّةٌ لتعظيم المولى سبحانه وتعالى.

وفي التعريف بالموصولية "زيادةٌ في التقرير، أي تقرير المسند"(١)، وهو هداية الله –سبحانه وتعالى– خلْقَهُ إلى سُبُلِ الهدايةِ.

وبعد تذكير ابن الورديِّ بالتقوى في الأبيات السابقة؛ ذكَر الموتَ تدعيمًا لطلب التقوى، وتدعيمًا للنهي عن اتباع المنجِّمينَ، فما نجا منجِّمٌ من الموتِ، فقال:

١٢– كُتِبَ الْمَوْتُ عَلَى الْخَلْق فَكَمْ .: فَـلَّ مِنْ جَيْشٍ وَأَفْنَى مِنْ دُوَلْ

---

(١) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لأحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣ هـ)، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ– ٢٠٠٣م، ١/ ١٧١.

أي ومن حكمة الله تعالى التي نصَّ عليها في البيت السابق: أنَّه قدَّر الموتَ على كلِّ مخلوقٍ، حيث إنَّ الموتَ كثيرًا ما غيَّبَ عُتاةً ومتجبِّرين، وكثيرًا ما كسر من جيوش وضعَّفها، وكثيرًا ما قضى على دولٍ برُمَّتِها.

وإسنادُ كلٍّ من **(فَــلَّ، وأَفْنَى)** إلى ضميرِ الموتِ مجازٌ عقليٌّ علاقتُهُ السببيَّة، وبين كلٍّ من **(الْمَوْت، فَــلَّ، وأفْنَى)** مراعاةُ نظيرٍ جمعتْ بين المَوْتِ وأفْعَالِهِ من الفَلِّ والْإِفْنَاءِ.

وتنكير كلٍّ من **(جَيْشٍ ، دُوَلْ)** للتكثير والتهوين من شأن الموت، الذي لا يكبُرُهُ كابرٌ ولا يُعْجِزُهُ عددٌ، فكم كسَّر ودمَّر من جيوشٍ كثيرة، وكم أفنى وأهلك من دولٍ كثيرةٍ أيضًا.

ثمَّ يسوق الأمثلة على ذلك كلِّهِ، ويدلِّلُ على إفناءِ الموتِ وإهلاكِهِ، ويؤكِّدُ ما قاله بإرسالِ عدةِ استفهاماتٍ على سبيلِ التعجيب والتعجُّبِ والوعظِ والإرشادِ والاعتبارِ ممَّنْ سبق من الأمم؛ ليؤيِّدَ ما طلبه قبل ذلك من تقوى الله والابتعاد عن المنجِّمين، فيقول:

١٣- أَيْــنَ نُمْــرُودُ وكَنْعَانُ وَمَنْ .: مَلَكَ الْأَرْضَ وَوَلَّــى وَعَــزَلْ

ويتساءل سؤالَ استغرابٍ ودهشةٍ أينَ هؤلاء الأشخاصُ والملوكُ الذين كانت لهم صولةٌ وجولةٌ وسطوةٌ وبطشٌ وفتكٌ متكبرين على أناسِ زمانهم مثل النُّمرودِ الَّذي عاند سيدَنا إبراهيمَ -عليه السلامُ-، وزعم غباءً وحمقًا أنَّهُ يُحْيي ويميت، لما قال له سيدُنا إبراهيمُ -عليه السلام -: إنَّ الله تعالى هو الذي يُحْيي من عدمٍ ويميتُ من إحياءٍ، ولما قال له سيدنا إبراهيم: إنَّ الله تعالى يأتي بالشمس من المشرق، فأتِ بها من المغرب، فما استطاع أن يجيب جوابًا، وبُهِتَ الذي كفر، وأماتَ اللهُ -تعالى- هذا المتكبِّرَ وأهلكه بأضعفِ مخلوقاته، كما سردَ القرآن الكريم هذه القصة في سورة البقرة.

ويتساءل ابنُ الورديّ عن كنعانَ الذي هو أحدُ أبناءِ سيدِنا نوحٍ عليه السلام، الذي أغرقه الطوفانُ، أين ذهب؟ لقد غيَّبه الموت، كما غيَّب غيرَه من

المُعانِدِين المُتكبِّرين، ثم يتساءل عن كلِّ ملكٍ من ملوك الدنيا كان يولِّي من يشاء ويعزل من يشاء، كلُّ هؤلاء وغيرُهم لم يفرُّوا من الموت الذي قدَّره اللهُ تعالى على خلقِه.

والفعلان **(وَلَّـــى وَعَـــزَلْ)** بينهما طباقٌ ظاهرٌ يوضِّحُ ويبرزُ سيطرةَ الملوكِ وقوَّتَهُم وتحكُّمَهم في المنح والمنع الذي عبَّر عنه الشاعر بالولِاية والعزل.

والتعريف بالموصوليَّة **(منْ مَلَكَ الأرضَ)** لإبراز صفة المُلك الَّذي يتبعُه التحكُّم والسيطرة، والاستفهامُ في **(أيـــنَ منْ مَلَكَ الأرضَ؟)** تذكيرٌ بنهاية هذا المُلكِ وزوالِ مالِكِهِ.

١٤- أيْـــنَ عَادٌ أيْنَ فِرْعَوْنُ ومَنْ .: رَفَـــعَ الْأَهْرَامَ مَـــنْ يَسْمَعْ يَخَلْ

ويتساءل عن قومِ عادٍ الَّذين بنوا حضارةً عاليةً، وبلغوا شأوًا كبيرًا في البنيان والعمران، حين تحدَّث القرآنُ الكريمُ عنهم، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ﴾[الفجر: ٦-٨].

ويتساءل كذلك عن فرعون وقومه الَّذين كانوا يتملَّكون ثرواتٍ هائلةً، وكانت لديهم ممالكُ وممتلكاتٌ، صوَّرها القرآنُ الكريمُ بعد هلاكهم، بقوله: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧﴾ [الدخان: ٢٥-٢٧]، وأين مَنْ بنوا الأهراماتِ الثلاثةَ الضخمةَ التي تُعَدُّ من عجائبِ الدنيا وغرائبِها؟ كلُّ هؤلاء لم ينجوا من الموت الذي كتبه الله – تعالى- على الخلائق.

وأفردَ عادًا بالذكر **(أيـــن عادٌ)**؛ للدلالة على التفرُّدِ في الحكم وإخراج زينة الدنيا على أبهى صورةٍ كقومٍ، و**(أين فرعونُ)** كفردٍ في التفرُّد بجبروتِهِ والوصول إلى ذروة الحكم، فقومُ عادٍ تفرَّدُوا بالقوَّةِ الحسيَّة من خلال قوةِ البنيان، وفرعونُ تفرَّد بالقوَّةِ المعنويَّة وقهْرِ الناسِ وإجبارِهم على عبوديَّتِهِ،

وأينَ(**مَنْ رَفَــعَ الْأَهْرَامَ؟**) هؤلاء القومُ تفرَّدوا في ملكهم عن بقيَّة الملوك، فكانوا أظهر الناسِ في البنيانِ.

وكلُّ هؤلاء مصيرُهُم إلى زوالٍ، فقومُ عادٍ بنوا إرمَ ذات العماد، التي لم يُخلق مثلُها في البلاد من شدَّةِ القوَّةِ والمتانةِ وطولِ البنيان، وكذلك بناء الأهرامات التي تُعدُّ من عجائب الدنيا، وكذلك فرعون الذي استعبد الناسَ.

إذا كان الموتُ أفنى كلَّ هؤلاء، فكيف بحال الباقين؟! وكلُّ هذا للعبرة والعظة والتذكير بزوال كلِّ مُلكٍ ومالِكِهِ، قال – تعالى–: ﴿ **كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧** ﴾[الرحمن: ٢٦– ٢٧].

وذكر هذه الأعلام (**نُمْرُودُ، كَنْعَانُ، فِرْعَوْنُ، عَادٌ**) لاستحضارِ أوصافها في ذهن المتلقِّي، وحملٌ له على الإقْرَارِ بمصيرِهم.

١٥– أينَ من سادوا وشادوا[١] وبَنَوا ∴ هَــلَكَ الكلُّ ولــم تُــغنِ القُلَلْ[٢]

وأينَ من كانت لهم السيادة والريادة على الناس؟ وأينَ من قاموا بالتشييد؟ والتشييد يعني إعلاء البناء وطلاءه بالألوان، هؤلاء كلُّهُم هلكوا، ولم تنفعْهُمُ القُلَلُ، أي الارتفاعات في البناء وخلافه، والمراد ما علا من القصور[٣]، وهي جمع قُلَّةٍ.

ويتَّضح جليًّا بلاغةُ الجناس المضارعِ بين (**سَادُوا، وَشَادُوا**)، والذي ضارعَ وساوى بين مَنْ سادَ بحكمه ومن شادَ بناءَهُ في الزوال والفناء، ولا

---

(١) الشِّيدُ، بِالْكَسْرِ: كلُّ مَا طُلِيَ بِهِ الحائطُ من جِصٍّ أَو بَلاط، وَبِالْفَتْحِ: الْمَصْدَرُ، تَقُولُ: شَادَهُ يَشِيدُه شَيْدًا: جَصَّصَه، وبناءٌ مَشِيدٌ: مَعْمُولٌ بالشِّيد، وَكُلُّ مَا أُحْكِمَ مِنَ البناءِ، فَقَدْ شُيِّدَ، وتَشْيِيدُ الْبِنَاءِ: إِحكامُه ورَفْعُه. اللسان (شيد).

(٢) أَقَلَّ الشيءَ يُقِلُّه واسْتَقَلَّه يَسْتَقِلُّه إِذا رَفَعَهُ وَحَمَلَهُ، وأَقَلَّ الشَّيْءَ واسْتَقَلَّه: حَمَلَهُ ورَفَعَهُ، وقُلَّة كُلِّ شَيْءٍ: رأْسُهُ، والقُلَّة: أَعلى الْجَبَلِ، وقُلَّة كُلِّ شَيْءٍ: أَعلاه. اللسان (قلل).

(٣) تفاصيل الجمل في شرح لامية ابن الورديّ، د/ عبد العزيز بن علي الحربيّ، دار ابن حزم، بيروت– لبنان، ط١، ١٤٣٣هـــ– ٢٠١٢م، صـــ٣٥.

يخفى ما "يُحْدِثُهُ الجناسُ من المفاجأة وخداعِ الأفكارِ واخْتلابِ الأذهانِ؛ إذْ يَتوهَّم السَّامع أنَّ اللفظَ مردَّدٌ، والمعنى مكرَّرٌ، وأنَّه لن يجنيَ منه سوى التطويل والسآمة، وعندما يأتي اللفظُ الثاني بمعنًى يُغايرُ ما سبقه، تأخذُهُ الدَّهشةُ لتلك المفاجأةِ غيرِ المتوقَّعة"(١).

وبين الألفاظ الثلاثة **(سادُوا، وشادُوا، وبَنَوا)** مراعاةُ نظيرٍ في اللفظ والمعنى، تآزرتْ مع الجناسِ المضارع في توافق الألفاظ وائتلافها، مما يؤدِّي إلى انسجام المعاني، فالسيادة لتصاريف الحكم، وهي خاصَّةٌ بالأشخاص، والتشييد والبناء خاصٌّ بالأرضِ، فهؤلاء المُشارُ إليهم سادوا بحكمِهم وتصرُّفهم في الخلائق، وشادوا ببنائهم وتشييدهم.

وقوله: **(هَـلَكَ الكلُّ ولـم تُـغنِ القُلَلْ)** استئنافٌ بيانيٌّ لشبه كمال الاتصال، فالجملة جوابٌ عن سؤالٍ أثارته الجملة الأولى**(أينَ مَنْ سَادُوا وَشَادُوا وبَنَوْا؟)**، تقديره: (أينَ هُمُ الْآنَ؟).

وقوله: **(هَـلَكَ الكلُّ)** إجمالٌ بعد تفصيلٍ لهذا البيت وما قبله، ومن بلاغة هذا الإجمال والتفصيل أنَّ مفرداتِ العطفِ كلَّها دخلتْ تحتَ سؤالٍ واحدٍ، وكانت إجابتُها واحدةً، وهي الهلاكُ والزوالُ.

وقوله: **(ولـم تُـغنِ القُلَلْ)** تذكيرٌ بأنَّ العاقبةَ للتقوى، والتعبير بـ**(القُلَلْ)** وهو ما علا من القصور والمباني العالية التي اتَّخذها هؤلاء السادة؛ تهويناً وتقليلًا لقيمتها في عين المخاطب، وتذكيرًا له بقيمتها الغالية، ثمَّ تصويرها فانيةً زائلةً.

ويواصلُ ابنُ الورديِّ استفهامَهُ، فيقول:

---

(١) علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، أ.د/ بسيوني فيود، دار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٢م، صـ ٢٨٧.

١٦- أيْنَ أربْابُ الْحِجَى[١] أَهْلُ النُّهَى[٢] .: أَيْــنَ أَهْــلُ الْعِلْمِ وَالْقَوْمُ الْأُوَلْ؟

ويسألُ سؤالَ استغرابٍ ودهشةٍ وتعجُّبٍ عن أصحابِ العقولِ الَّذين كانوا يتوقَّدُونَ ذكاءً ودهاءً وفطنةً، وأينَ مَنْ بلغوا في العلمِ مكانةً سامقةً ساميةً، وأيْن الأوائل من الناس؟

وهذا السؤال حملٌ للمخاطب على الإقرار بفناء العلماء أصحاب العقول، فلا يدفع عنهم الموتَ عقلُهُم الذي "يمنع الإنسانَ من الفساد، ويحفظه من التعرض للهلاك"[٣]، وكذلك في هذا الاستفهامِ حملٌ للمخاطبِ على التسليم بالنتيجة التي ذكرها الشاعرُ في البيت التالي:

١٧- سيُــعِيــدُ اللهُ كُــلًّا مِنْــهُمْ .: وَسَيَــجْزِي فَــاعِلًا مَا قَدْ فَعَلْ

كلُّ الأصناف الذين ذكرهم فيما سبق وغيرهم من خلق الله تعالى، سيعيدهم الله تعالى؛ ليحاسبهم على أعمالهم، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ، فلن يفلتَ أحدٌ من الجزاء.

وهذه الجملةُ **(سَيُــعِيــدُ اللهُ كُــلًّا مِنْــهُمْ)** جوابٌ عن سؤالٍ أثارتْه الجملُ الاستفهاميَّةُ السابقة، تقديرُهُ (ما مصيرُهم؟)، "ولا يصار إلى هذا الأسلوب إلَّا لاعتباراتٍ لطيفةٍ، كإغناءِ السَّامع عن أن يسأل، حيث إنَّ الجملةَ الأولى تُثيرُ في النفس كثيرًا من الخواطر، فتأتي الجملةُ الثانيةُ مجيبةً عنها، وفي طيِّ هذه الخواطر، وترك الإفصاح عنها ضربٌ من الايجاز"[٤].

---

(١) الحِجَا مقصورٌ: العقل والفِطْنة. اللسان (حجو).

(٢) النُّهْيَةُ: العقلُ، والجمعُ: النُّهَى. القاموس المحيط، للفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، مادة (نهي).

(٣) لسان العرب، مادة (حجا).

(٤) معاني التراكيب، أ.د/ عبد الفتاح لاشين السيد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م، ٢/١٧٠.

وقوله: **(كــلًّا مِنْــهُمْ)** إجمالٌ دخلَ فيه كُلُّ الأصنافِ السابقةِ التي ذكرها الشاعر من مسيئٍ ومحسنٍ، وقدَّم المُسيئين على المُصلحين؛ لأنَّ آثارهم تسبق آثارَ أهلِ العلمِ وأهلِ الحكمة، فالغرورُ بالدنيا أسبقُ للناسِ من العلمِ والحكمةِ.

والتعبير بـــ**(كُــلًّا)** فيه دلالةٌ على دقَّةِ الحصر، فلنْ يفلِتَ أحدٌ من حسابِ اللهِ على ما قدَّم من أعمالٍ.

وتعبيره بالسين دون (سوف) في الفعلين**(سَيُــعيــدُ، وسَيَــجْزي)**؛ للدلالة على سرعةِ الإعادة والجزاء؛ لأنَّ الدُّنيَا مهما طالتْ فهي قصيرةٌ، ومهما عظُمتْ فهي حقيرةٌ، والوصل بين الجملتين؛ لاتِّحادِهما في الخبريَّةِ لفظًا ومعنًى، مع وجود المناسبةِ بينهما.

والتحقيق بـــ(قدْ) في قوله: **(وَسَيَــجْزِي فَــاعِلًا مَا قَدْ فَعَلْ)** لتأكيد عدلِ الله عزَّ وجلَّ في حسابِهِ.

وهذا البيتُ يعدُّ من حُسْن الانتهاء والتخلُّصِ من هذه الفكرةِ إلى فكرةٍ أخرى، فبعدَ أن ذكر أصنافًا متعدِّدةً من الطُّغاةِ والمتجبِّرينَ، وذكر أنَّ مصيرَهم كان الهلاك والزوال، فلم ينفعهم ملكُهُم وأموالهم، وكذلك ذكر أنَّ أهلَ العلم وأصحاب العقول السليمة لم يدفع علمُهمُ عنهم شيئًا، ولم يحُلْ بين موتِهِم حائلٌ؛ ذكر عاقبةَ ذلك كلِّه، وأنَّ اللهُ سيعيدُ كلًّا منهم بالبعثِ، وسيحاسبهم ويجازيهم، كلٌّ حسب ما قدَّم، وهذا دليلٌ على صدقِ كلامِ الشاعر، وتأكيدِ معانيه، وتقريرها في نفسِ المتلقي.

المبحث الثاني

الْوَصَايَا

١٨- أَيْ بُنَيَّ اسْمَعْ وَصَايَا جَمَعَتْ حِكَمًا ∴ خُصَّتْ بِهَا خَيْرُ الْمِلَلْ

وينتقل إلى توجيه النصائح الغالية والوصايا العالية التي يخصُّ بها طائفةً عمريَّةً مهمَّةً، وهمُ الأبناء؛ وذلك لخطر هذه المرحلة، وأهميَّة النصح لهم، وإن كانت هذه الوصايا وتلك النصائح مفيدةً ونافعةً لكلِّ الطوائف العمرية، وهذه النصائح اختصَّت بها خيرُ المِلَل، وهي ملةُ سيدنا محمد ﷺ التي قال الله في وصفِها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(أي) "حرفُ نداءٍ للقريب"[(١)]، وفيها تقريبٌ للمسافة، وتحبُّبٌ للمخاطب بذكر البنُوَّة، وبدأ بالنداء للفتِ الانتباه، وأتبعه بالأمر؛ إيذانًا بانتقالهِ من المقدِّمة التي شملتِ التَّخْلِيَةَ والتَّحْلِيَةَ إلى تفصيلِ ما أراده من وصايا ونصحٍ بمكارم الأخلاق.

وقوله: **(خيرُ المِلَلْ)** كنايةٌ عن الإسلام، على سبيل تأكيد المعنى وتقويتِهِ، وتعظيم ملة الإسلام، فالأخلاق مُعظَّمةٌ في الإسلام، وهي جزءٌ من الدِّين، والجزاء الخُلُقيُّ بالثواب والعقاب مُحقَّقٌ بالثناء في الدنيا والجزاء العظيم في الآخرة.

ثم استأنف في البيت التالي؛ للإيضاح بعد الإبهام، فقال:

١٩- اُطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ فَمَا ∴ أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلْ

٢٠- وَاحْتَفِلْ لِلْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَلَا ∴ تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلْ[(٢)]

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري، ٢٠٤/١ تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع القاهرة، ٢٠٠٥م، ١٠٦/١.

(٢) الخَوَل: مَا أَعطى اللهُ -سبحانه وتعالى- الإنسانَ مِنَ النِّعَمِ. اللسان: مادة(خول).

أوَّلُ هذه الوصايا: طلبُ العلمِ، والحذرُ من الكسلِ والخمولِ في ذلك، حيث إنَّ الخيرَ والنفعَ أبعدُ ما يكونُ عن الكُسالَى والخاملين.

ويوجِّهُ إلى الاهتمامِ بالفقهِ في الدِّينِ والاعتناءِ به، فإنَّهُ خيرُ ما يُكتنز ويُختزن؛ لكي نعبد الله تعالى عبادةً حقَّةً خاليةً من شوائب الشِّرْك، وبعيدةً عن السلوكيَّات الخاطئة، ولقد دعا سيدنا محمد لسيدنا عبد الله بن عباس بقوله: "اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ في الدِّينِ، وعلِّمْهُ التَّأويلَ"(١).

ويحذِّر من الانشغال عن الفقه بالمال والخولَ، ويرادُ به ما جمعه الإنسان من ثرواتٍ وممتلكاتٍ، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[الأنعام: ٩٤].

وجملة **(وَلَا تَكْسَلْ)** في قوله: **(اُطْلُبِ الْعِلْمَ وَلَا تَكْسَلْ)** جملةٌ توكيديَّةٌ أتتْ بالواو لمزيد الاهتمام بطلب العلم الذي لا ينفع معه كسلٌ وخمولٌ.

وقوله: **(فَمَا أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الْكَسَلْ)** فيه توظيفُ التعجُّبِ للاستبعاد، ولبيان شدَّةِ بُعْدِ الخيرِ عمَّن لازمَ الكسل.

وفي إتيانه بلفظ **(ولا تكسَلْ)** في الشطر الأول، وإعادته **(أهلِ الكَسَلْ)** في آخر الشطر الثاني من البيتِ نفسِهِ فيه ردٌّ للعجُزِ على الصدرِ، لتأكيدِ المعنى، حيث إنَّ في ردِّ العجز على الصدر "نوعًا من الدلالة والتقرير، فالكلامُ الذي تتردَّدُ ألفاظُهُ ويرجعُ بعضُها إلى بعضٍ فيه تقريرٌ وبيانٌ وتدليلٌ"(٢).

ثمَّ يقولُ ناصِحًا:

٢١- وَاهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ فَمَنْ .:. يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٣٢)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
(٢) البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم، د/ عبد الفتاح لاشين، مطبعة دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٣٥هـ- ٢٠٠٩م، صـــ١٧٦.

وينصح بهجران النومِ وعدمِ الإكثارِ منه؛ لتحصيلِ العلمِ الذي أمر به في البيت السابق؛ وذلك لأنَّ من يُحصِّلِ المطلوبَ من العلمِ والمعرفةِ، فإنَّه يستقلُّ الجُهدَ الَّذي بذلَه ويستحقره؛ حيثُ إنَّ كُلَّ ما يُبْذَلُ في سبيل العلم فهو رخيصٌ.

والضمير في (حصِّلْهُ) يعود إلى (العلمِ) في البيت الثامن عشر، وكان من الممكن أن يضعَ الاسمَ الظاهرَ موضعَ الضميرِ، فيقول: (وحصِّلِ العلمَ)، ولكنه عدلَ عن ذلك؛ لأنَّ الفكرةَ بين العلمِ وطلبِه مترابطةٌ مترتِّبٌ بعضُها على بعضٍ، حيثُ أمَر أولًا مُخاطَبَهُ بطلب العلمِ، وأيَّد هذا الطلبَ بالنَّهْيِ عنِ الكسلِ، ثمَّ أمرَ بالاحتفالِ لعلمِ الفقهِ والاهتمامِ بشأنِهِ، وبعدَ نهْيِهِ عنِ الكسلِ، أمرَه بهجرانِ النوم؛ لكونه سبيلًا يرتضيه ابنُ الورديِّ لتحصيلِ العلْمِ.

وذكر (الفقه) بعد (العلمِ) خاصٌّ بعد عامٍّ؛ لمزيدِ الاهتمام بعلمِ الفقه، وفيه حثٌّ وترغيبٌ على تعلُّمِهِ؛ لعظيمِ نفعِهِ.

وقولُهُ: **(فَمَنْ يَعْرِفِ الْمَطْلُوبَ يَــحْقِرْ مَا بَذَلْ)** تذييلٌ جارٍ مجرى المثلِ، وفيه تأكيدٌ لمعنى الجملةِ قبلَهُ، وترغيبٌ كذلكَ في طلبِ العلمِ، وحثٌّ على هجرانِ النَّوم، وبذل كلِّ شيءٍ في سبيل العلم.

٢٢- لَا تَــقُلْ قَــدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ .: كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

وينصح السَّاعي إلى العلم بأن لا يقول: إنَّ العلمَ قدِ استوفاه السابقون، فلم يعد لي مجالٌ؛ لأنَّ كلَّ مَنْ علَتْ همَّتُهُ، وسار على طريق العلم والعلماء، فإنَّه لا شكَّ سيصل لمبتغاه وهدفه، فكمْ تركَ الأوَّل للآخر، والكلمة الأخيرة في العلم لم تُقَلْ بعدُ، والكلُّ يدلُو بدلْوِهِ.

وجملةُ: **(كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ)** تضمينٌ بالمَثَلِ، والأمثالُ توسُّعٌ في المعنى، وهي "وشيُ الكلامِ، وجوهرُ اللفظ، وحلى المعاني،... فهي أبقى من الشّعر، وأشرفُ من الخطابة، لم يسر شيءٌ مسيرَها، ولا عمَّ عمومَها،

حتى قيل: أَسْيَرُ من مثل"[١]، والجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ لتعليل النهي عن قول: **(قَــدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ)**، وفي التعليلِ حثٌّ على طلب العلم، وتوجيهٌ إلى عدم الاتِّكَالِ والارتكاز على ما حقَّقَ السَّابِقُون.

وقد ذكر في البيتين الثامن عشر والتاسع عشرَ (العلمَ)، وخصَّصَه بالفقه في الدين، فجعله أساسًا للفكرةِ، وبدأ يبني عليه مجموعةَ حدودٍ وتفريعاتٍ ومناقشاتٍ داخليَّةٍ، يمكن أن تجعلَ الإنسانَ يقفُ أو يمتنعُ عن طلب الفقه في الدين، مثل الكسل، والنوم، وقول: "مَا تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخَرِ شَيْئًا"، وذلك على سبيل الإقناع بالوصيَّةِ أو الطَّلب الذي طلبه أوَّلًا والترغيب فيه.

ويواصلُ تعْليلَهُ لطلبِ العلمِ، بقولِهِ:

٢٣- في ازديادِ العلمِ إرغامُ العِدى .: وجمالُ العلمِ إصــلاحُ العمــلْ

ويعلِّلُ ابنُ الورديِّ للحِرصِ على طلبِ الْعلمِ والازديادِ منه بأنَّه وسيلةٌ لإذلالِ الأعداءِ وإرغامِ أُنُوفِهم، كما أنَّ العلمَ لا يَحسُنُ ولا يَجمُلُ إلا بإصلاح العمل؛ حيث إنَّ العملَ القائمَ على العلمِ يكونُ سديدًا مفيدًا، وعلمٌ بلا عملٍ لا فائدة منه.

والتعبير بالجملة الاسميَّة "فيه زيادةُ تأكيدٍ وتثبيتٍ للمعنى"[٢]، وتكرار كلمة (العلم) للاهتمامِ بشأنِهِ، وتقديم متعلق الخبر **(فِي ازْدِيَادِ الْعِلْمِ)** على المسند إليه **(إِرْغَامُ الْعِدَى)** لِلاهتمامِ بشأنِ العلمِ والحثِّ على طلبِهِ، والتعبيرُ بالمصادر **(ازْدِيَاد، إِرْغَام، جَمَال، إِصْلَاح)** دلالةٌ على تثبيت المعنى وإقراره في نفس المتلقِّي.

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسيّ (ت ٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ، ٣/ ٣.

(٢) المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبية العصرية، صيدا – بيروت، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ٢/ ١٩١.

والتَّقْييدُ بالإضافة في كلٍّ من(**ازديادِ العلمِ، إرغامُ العِدى، وجمالُ العلمِ، إصـــلاحُ العمـــلْ**)؛ لتربيةِ الفائدة، وزيادة الإيضاح.

وينتقل ابن الوردي إلى فرعٍ آخر من فروع العلم، فيقول:

٢٤- جَمِّلِ المَنطِقَ بالنَّحو فـــمنْ ∴ يُـــحرَمِ الإعرابَ بالنُّطق اختبلْ

فبعد أنْ أمرَ بالعلم وعلم الفقه على الخصوص؛ لكونه الأهمَّ للدين والدنيا والآخرة، نراه يأمر بتعلُّم حلية الكلام، وهو علم النحو الذي هو بمنزلة الملح من الطعام، حيث قال بعضهم: (النَّحْوُ مِنَ الْكَلَامِ كَالْمِلْحِ مِنَ الطَّعَامِ)، والذي قال عنه ابنُ الطبيب[1]: [من الكامل]

النَّحْوُ يَبْسُطُ مِنْ لِسَانِ الأَلْكَنِ ∴ وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَـــنِ

فَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَّهَـــا ∴ فَأَجَلُّهَا مِنْهَا مُقِـــيمُ الْأَلْسُـــنِ

فلا بدَّ للمتكلم أن يُهذِّبَ كلامَهُ ويُشذِّبَه بقواعدِ الإعراب، التي هي دلالةٌ على المعاني المخبوءَةِ في النَّفْسِ، ويحذر من تجريد الكلام من قواعد النحو؛ لأنَّ هذا يؤدِّي بالإنسان إلى الاضطِّرابِ وفسادِ العقل.

وفي أسلوب الأمر(**جَمِّلِ الْمَنْطِقَ بِالنَّحْوِ**) مزيدٌ من الترغيبِ في تحسين المطلوب في ذهن المخاطب، والتعليل بالفاء في قوله: (**فـــمَنْ يُـــحرَمِ الإعْرَابَ بالنُّطق اخْتبلْ**) بأنَّ تركَ الإعراب نوعٌ من الحرمان أتى به ابنُ الورديِّ على سبيل الترغيبِ في طلبِ النحوِ واستخدامِه في الكلام.

وفي البيتين التاليين ينصح ابنُ الورديِّ بالحثِّ على نظْم الشعرِ دون أن تكونَ النيةُ تكسبًا أو تزلُّفًا، فيقول:

---

(١) البيتان في زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري القيرواني، المتوفَّى سنة٤٥٣هـــ، ٢/ ١٢١، وهما للشاعر إسحاق بن خلف البهرانيّ المعروف بابن الطبيب، وهو من شعراء المعتصم، تُوُفِّي في حدود سنة ٢٣٠هـــ. ينظر: فوات الوفيات، ١/ ١٣.

٢٤- انْــظُمِ الشِّعْرَ وَلَازِمْ مذْهَبِي ∴ فِــي اطِّرَاحِ الرَّفْدِ لَا تَبْغِ النِّحَلْ

٢٥- فَهْوَ عُنْوَانٌ عَلَى الْفَضْلِ وَمَا ∴ أَحْسَنَ الشِّعْرَ إِذَا لَــمْ يُــبْتَــذَلْ

ويُرشد إلى نظْم الشعر، لكنْ شريطة أنْ يكونَ خالصًا صافيًا من غرض التكسُّب والتزلُّف والتقرُّب لصاحب جاهٍ أو سلطانٍ، ويقصد بالرفد والنحل: العطيَّة، فعلى الشاعر أن يتجنَّب كلَّ ذلك، ويقول: إنَّ هذا مذهبه في الحياة لا يتكسب بشعره.

وجملة **(لا تبغِ النَّحَلْ)** هي نفسُها جملة **(ولازمْ مذهبي فــي اطِّراحِ الرَّفدِ)**، وقد فُصلَ بينهما؛ لكمال الاتصال، فالجملةُ الثانيةُ تأكيدٌ للأولى وبيانٌ لها، فاطِّراح الرفد هو نفسُهُ تركُ النِّحَل وعدم بُغيَة النِّحل، وكمال الاتِّصال هو ما "يكونُ بين الجملتين من اتحادٍ تامٍّ وامتزاجٍ معنويٍّ، حتى كأنَّهُما أُفْرِغَا في قالبٍ واحدٍ، وهذا يكونُ في بابِ التوكيدِ؛ لزيادةِ التقريرِ"(١).

ويبين أنَّ الشاعر الذي لا يريد بنظمه تكسبًا ولا تملقًا، فإن هذا دليلٌ على شرفه، وإنَّ حلاوة الشعر وجماله في عدم استغلاله لعطيةٍ أو نحوها.

****

(١)علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، أحمد بن مصطفى المراغي (ت١٣٧١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م، صـ١٦٨.

المبحثُ الثَّالث

القناعةُ والرضا بالقليل

٣٠- مُلْكُ كِسْرَى عَنْهُ تُغْنِي كِسْرَةٌ ∴ وَعَــنِ الْبَحْرِ اجْتِزَاءٌ بِالْوَشَلْ[(١)]

هذا البيتُ تمهيدٌ لفكرةٍ جديدةٍ هي القناعةُ والاكتفاءُ من الدُّنيَا بالقليل، وتركُ الحيلة باكتسابِ ما فيها والتنافُس عليها، وبه يستمرُّ ابن الورديّ في الوعظ بالزهدِ والورعِ في طريقةِ العيشِ وأمورِ الحياة، فيقول: إنَّ كِسْرَى الَّذِي كانَ مَلِكًا من ملوكِ بلاد فارس على اتِّساعه وشُموله يُغْنِي عنْ مُلْكِهِ كِسْرةٌ من خبزٍ، يسدُّ بها الإنسانُ جوْعَتهُ، ويُقيم بها أودَهُ، وما زاد على ذلك فإنَّهُ من عرَضِ الدنيا سُرْعَانَ ما يزُولُ كما زال مُلكُ كِسْرَى، والبحرُ على كثرةِ مياهِهِ ووفرةِ أمْواجِهِ يُغْنِي عنه الوشَلُ، وهو الماءُ القليلُ الَّذي يتساقط من جبلٍ أو صخرةٍ، ولا يتَّصِلُ قطرُهُ، حتَّى إنَّه يُقَالُ ما أصَابَ إلَّا وشَلًا منَ الدُّنْيَا.

ولم يبدأ ابنُ الورديِّ مباشرةً بالطلبِ بالنُّصْحِ والإرشادِ، وإنَّما مهَّد للفكرةِ بالجملة الخبريَّةِ أوَّلًا، علَى سبيلِ الإقناعِ بالفكرة؛ لعلمِهِ بشدَّة تعلُّق الإنسانِ بالدُّنيا وما فيها من مُغْرِيَاتٍ.

هذا وابنُ الورديِّ يستعينُ بالجناسِ الذي يحثُّ العقل على التفكُّر والتأمُّل بين كلمتي **(كِسْرَى، وكِسْرَةٌ)**، والفرق بين معنيَي الكلمتين واسعٌ وشاسعٌ، فملكُ كسرى تُغنِي عنهُ كِسرةُ خبزٍ.

وتقديم المتعلق الجار والمجرور **(عنهُ)** على المسند الفعليّ **(تُغني)**؛ للاهتمامِ وجذب الانتباه إلى مُلك كِسْرَى وهو العائد عليه الضمير في **(عنهُ)**، فكسرةُ الخبزِ تسُدُّ الجوعَ، والوشلُ يسُدُّ العطشَ.

---

(١) وَشَلَ: الوَشَل، بِالتَّحْرِيكِ: الماءُ الْقَلِيلُ يَتَحَلَّب مِنْ جَبَلٍ أَو صخْرةٍ يقطُرُ مِنْهُ قَلِيلًا قَلِيلًا، لَا يَتَّصِلُ قطْرُهُ، وَقِيلَ: لَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلا مِنْ أَعلى الجَبَل، وَقِيلَ: هُوَ مَاءٌ يخرُج مِنْ بَيْنِ الصخْر قَلِيلًا قَلِيلًا، وَالْجَمْعُ أَوْشَال. اللسان: (وشل).

ثمَّ يأمرُ قائلًا:

٣١- اِعْــتَبِرْ (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ) .: تَــلْقَهُ حقًّا (وَبِالْحَــقِّ نَــزَلْ)

ويوجِّهُ السَّامِعَ إلى أنْ يتَّعِظَ بقولِ الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، حيثُ إنَّ أقدارَ الله تعالى في الخلق متفاوتةٌ، فهذا غنيٌّ وهذا فقيرٌ، وهذا قويٌّ وهذا ضعيفٌ، فلا بدَّ أن يرضى كلُّ إنسانٍ بما قدَّر الله تعالى وقسَم له، ثم يقول بأنَّ قسمةَ الأرزاقِ إنَّما هي من الله تعالى الذي نزَّلها بالحق.

وقوله: **(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ)** فيه تلميحٌ وإشارةٌ إلى الآية الكريمة السابقة، والتلميح من عوامل التشويق وإمعانِ الفكر، فهو (يجعلُ المعنى الذي يُفترضُ أنْ يستحضرَهُ المتلقِّي أكبرَ من اللفظ الذي يعبّر به عنه)[١].

ونلحظُ التلميحَ الواضحَ إلى القرآنِ الكريمِ منْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[الإسراء: ١٠٥]، وقوله: **(وبالْحَــقِّ نَــزَلْ)** تذييلٌ جارٍ مجرى المثل، يؤكِّدُ به معنى أنَّه ليس بالسعي تدركُ ما في الدنيا، وإنما بقسمة الله ﷻ، وتكمن بلاغةُ التذييل في أنَّهُ "يكون بعرض الأفكار المقصودة بالذات أولا، وإتباعها بما يزينها ويجعلها مقبولة"[٢].

والأبيات التاليةُ تدليلٌ على فكرةِ **(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ)**، وهذا ليس نصحًا مباشرًا كذلك، وإنما هو تدليلٌ للفكرةِ وتمهيدٌ وتقويةٌ لها.

---

(١) البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع، د/ مسعود بودوخة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠١٥م، صـــــ١٢٢.

(٢) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق، الدار الشامية – بيروت، د.ت، ٧٥/١.

٣٢- لَيْسَ مَا يَحْوِي الْفَتَى مِنْ عَزْمِهِ .: لا وَلا مَا فَاتَ يَوْمــاً بِالْكَسَلْ

بدأ يُبرهنُ ابنُ الورديّ على فكرة **(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ)**، وينبِّهُ إلى أنَّ القسمةَ بيدِ الله وحدَه، فنفى أنَّ ما يقوم الإنسان بجمعه من زادٍ وعتادٍ بقوَّتِه وإرادته، إنَّما هو من إرادة الله ﷻ له وتوفيقه إليه، وأيضًا ما لم يجمعه الإنسان ليس السبب فيه الكسل، وإنَّما من قدر الله تعالى له، فهو -سبحانه وتعالى- يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، وابنُ الورديِّ يوضح هذا المعنى ويقويه بالمقابلة الواقعة بين شطري البيت **(مَا يَحْوِي الْفَتَى مِنْ عَزْمِهِ)** و**(مَا فَاتَ يَوْمــاً بِالْكَسَلْ)**.

٣٣- اطْــرَحِ الدُّنْيَا فَمِنْ عَادَاتِهَا .: تَخْفِضُ الْعَالِيْ وَتُعْلِي مَنْ سَفَلْ

وينصح بأن يهجر الإنسان الدنيا فلا يجعلها شغله الشاغل، وإنما يأخذ منها بقدرٍ وحسابٍ؛ حتى لا تصرفه عن أمور الآخرة، وحتى لا تغرّه بمباهجها ومفاتنها وبزينتها وزخارفها؛ لأن حال هذه الدنيا وشأنها أنها لا يدوم لها حالٌ ولا يستقر لها وضعٌ، حيث إنها كثيرًا ما تجعل الوضيع رفيعًا والرفيع وضيعًا، وقد استعان في سوق هذه الحقيقة بالمقابلة الواقعة بين **(تخفِضُ العاليْ وتُعلي مَنْ سَفَلْ)**، وكما قيل: "الْأيامُ قُلَّبٌ"، وقيل: "الدَّهْرُ يومان، يومٌ لكَ، ويومٌ عليكَ، ويومٌ نُسَاءُ ويومٌ نُسَرُّ"، وكلُّ هذه المعاني أشارتْ إليها الآيةُ القرآنيةُ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

٣٤- عِيشَةُ الرَّاغِبِ فِي تَحْصِيلِهَا .: عِيشَــةُ الْجَاهِــلِ فِيهَــا أَوْ أَقَلْ

يقول بأنَّ اللاهثَ وراءَ الدنيا لتحصيل الثروات والممتلكات يتساوى أمرُهُ في النهاية مع مَنْ جهلَ ذلك ولم يلهث لتحصيل متاع الدنيا؛ لأنَّ هذا المتاعَ مهما زاد فإنَّه إلى زوالٍ، ليس له صفة الأبدية، وصدق الله العظيم حيث قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وقد أورد هذا المعنى وأبان عنه بطريق التشبيه المقيَّد، الذي بيَّنَ به تسوية العيشتَيْن، كأنَّه

يريد نوعًا من التقسيم، وكان أولى أن يقولَ: (عيشةُ العالِمِ أو عيشةُ الجاهِلِ)، ولكنَّه سوَّى بين العيشتَيْن.

٣٥- كَــمْ جَهُولٍ بَاتَ فِيهَا مُكْثِرًا ∴ وَعَلِيــمٍ بَاتَ مِنْهَــا فِــي عِلَلْ

وهذه الدُّنْيَا أمرُها عجيبٌ، وحالُها غريبٌ، حيث تجد فيها الإنسانَ الجهولَ يُكثر من متاعها وثرواتها ووسائل التمكين الدنيويَّة، في مقابل العالم الذي بلغ في العلم شأنًا كبيرًا تجده وقد أصابه العِلَلُ والنَّقْصُ والْحاجةُ والعوزُ، ويلحظ استعمال الشاعر صيغة المبالغة في (جَهُولٍ)؛ للدلالة على زيادة الوصف بالجهلِ، وأيضا في (عَلِيم)؛ للدلالةِ على زيادة الوصف بالعلم، مستخدمًا التعبير بالاسم المبهم الَّذي يدلُّ على كثيرٍ غيرِ معلومٍ، وهو (كَمْ) الخبريَّة(١).

ولا يخفى ما بينَ شطري البيت من مقابلةٍ التي عملتْ على إظهار المعنى وإيضاحِهِ، وتأكيدِهِ في ذهنِ المُخاطَبِ، فـــــ "عند المقارنة بين الأضدادِ تتَّضِحُ خصائصُ كلٍّ منهما، وتتحدَّدُ المعاني المرادةُ في الذهن تحديدًا قويًّا"(٢).

ثمَّ يقول:

٣٦- كمْ شجاعٍ لم ينلْ فيها المنى ∴ وجبــانٍ نــالَ غايــاتِ الأمــلْ

وفي هذه الدنيا كثيرٌ من الشُّجْعان البواسل لم يستطيعوا تحقيق أمانيهم ولا ما يصْبُون إليه من أهدافٍ وغاياتٍ وإمكانياتٍ، وتجد الإنسانَ الجبانَ قد حقَّق من ذلك الكثيرَ والكثيرَ، ويلاحظ المقابلة بين كلٍّ من الشجاع والجبان في نيل المنى وعدم نيلها، وهذه بدورها تساعد في إبراز المعنى وتقويته، وتبرز قدرات الشاعر في التوليف بين المفردات اللغوية.

---

(١) كم الخبرية: بمعنى كثير، وهي اسمٌ مبهمٌ تفتقر إلى التمييز والبناء ولزوم التصدير، والمتكلم بها لا يستدعي من مخاطبه جوابًا؛ لأنَّه مُخْبِرٌ. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ٢٠٤/١.

(٢) دراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات محمد أبو ستيت، دار خفاجي للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـــ- ١٩٩٤م، صـــ٦٧.

٣٧- فَاتْــرُكِ الْحِيلَةَ فِيهَا وَاتَّكِــلْ ∴ إِنَّــمَا الْحِيلَةُ فِــي تَرْكِ الْحِيَلْ

هذا البيتُ نتيجةٌ ترتَّبت على كلِّ ما قاله ابنُ الورديِّ، بالطَّلَبِ من خلالِ فعل الأمرِ **(اتْــرُكِ)**، فقد بدأ بالإقناعِ أوَّلًا ثم بالطَّلَبِ، وبه يوجِّهُ الإنسانَ ويُرشِدُهُ أن لا يستعملَ الدهاءَ والمكرَ في الوصول إلى مرادِهِ ومُبْتغاه، وإنَّما عليه أن يسلك سبيلَ التوكل على الله سبحانه وتعالى، ثم يقول إنَّ الحيلة أي الوسيلة الحقيقة الَّتي يجب أن يسلكها الإنسان هي الاعتماد والتوكُّل على الله سبحانه وتعالى، ونبذ طرق الخديعة والمكر.

وعبَّر بالفعل **(اتــرك)** دون غيره؛ "لأنَّ التَّرْكَ من أفعال القلوب؛ لأنه انصرافُ القلب عن الفعلِ، وكَفُّ النَّفس عن ارتيادِه"(١).

وقد حذف متعلِّق الفعل **(اتَّكِلْ)**؛ للعلم به، وأنَّه ليس للمُتَّكِلِ اتِّكالٌ إلَّا على الله تعالى وحده.

وكلٌّ من الطباق بين **(الحيلةَ)** و**(تركِ الحيَلْ)** وردُّ العجز على الصَّدر يثيرُ الدهشةَ والتَّعجُّبَ، ويُحرِّكُ الذِّهنَ، ويدعو للتأمُّل.

وتتجلَّى بلاغة القصر والاستئناف بـــ "إنَّما" في قوله: **(إِنَّــمَا الْحِيلَةُ فِــي تَرْكِ الْحِيَلْ)**؛ للتعليل بترك الحيل، والتوكُّل على الله.

٣٨- أيُّ كفٍّ لَمْ تَنَلْ مِنْهَــا الْمُنَــى ∴ فَرَمَــاهَــا اللهُ مِنْــهُ بِــالشَّلَلْ

ويعلِّلُ لعدم اتخاذ المكر والخداع منهجًا وأسلوبًا للإنسان في سلوكياته، حيث إن معظم من حققوا أمانيهم بسبب الحلية والمكر، عاقبهم الله تعالى بشلِّ كفِّهم، فهم لا يستطيعون، ويلحظ تعبيره بالمجاز المرسل الذي علاقته الجزئية، حيث عبر بالجزء وهو الكفّ، وأراد الكل وهو جميع أعضاء الإنسان.

---

(١) سنة الترك ودلالتها على الأحكام الشرعية، لمحمد بن حسين الجيزاني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣١هـ، صـــــ٢٤.

٣٩- لا تقلْ أصلي وفَصلي أبدًا إنما .: أصلُ الفَتى ما قـــد حَصَـلْ

وينهى الشاعر عن الاعتماد على الحسب والنسب دون أن يكون له أثرٌ في الحياة؛ لأنَّ الأثرَ الحقيقيَّ هو ما يُحصِّلهُ الإنسانُ ويُنتجهُ، وهذه النصيحة تدور في فلك قول الشاعر الآخر: [من الكامل]

إِنَّـــا وَإِنْ كَرُمَـــتْ أَوَائِلُنَـــا .: لَسْـنَا عَلَـــى الْآبَـــاءِ نَتَّكِـــلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِـــي .: وَنَفْعَلُ مِثْـــلَ مَـــا فَعَلُـــوا[١]

ويلحظ الجناس اللاحق بين كلمتي: (أصلي وفصلي) الذي عمل على إثارة المتلقي وجذب انتباهه.

وقوله: **(أبدًا)** تذييلٌ بظرف الزمان؛ للنهي القاطع عن الاعتماد على الحسب والنسب في أي وقتٍ سابقٍ أو لاحقٍ.

والقصرُ بـــ (إنما) في قوله: **(إِنَّمَا أَصْلُ الْفَتَى مَا قَـــدْ حَصَلْ)** لتأكيدِ معنى أنَّ نسبةَ فضائل الأفعال للفتى لا تكون إلَّا بفعلِهِ على الحقيقةِ، وما يُنتِجُهُ بنفسِهِ، وهذا توجيهٌ للتطلُّعِ إلى فعلِ معالي الأمورِ، وعدم الاتِّكالِ على الحسب والنسب.

والتحقيق بـــ(قدْ) لتحقيق نسبةِ الفعلِ الفضيلِ المحمودِ إلى صاحبِهِ.

ثمَّ يقول:

٤٠- قَدْ يَسُودُ الْمَرْءُ مِنْ دُونِ أَبٍ .: وَبِحُسْنِ السَّبْكِ قَدْ يُنْقَى الدَّغَلْ[٢]

معللًا ومدللا على ما ورد بالبيت السابق من معنى، بأن المرء قد يحقق السيادة والريادة دون الاعتماد على حسب ونسب، ويسوق حكمةً على هذا

---

(١) البيتان في العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ، ٣/ ٣٥٨.

(٢) الدَّغَلُ بِالتَّحْرِيكِ: الْفَسَادُ مِثْلُ الدَّخَلِ. والدَّغَلُ: دَخَلٌ فِي الأَمر مُفْسِدٌ، والدَّغَلُ: الشَّجَرُ الْكَثِيرُ الملتفُّ. اللسان: (دغل).

المعنى بأنَّ الإنسانَ الذي يُذِيب مَعْدِنًا ليُهذِّبَه ويُشَذِّبَهُ ويجعله في صورةٍ بهيَّةٍ زاهيةٍ وهو المقصود بالسَّبْكِ، فإنَّهُ ينقِّيهِ من العيوبِ ومن الشوائبِ العالقة به وهو المقصود بالدَّغَلِ.

وقوله: **(وبِحُسْنِ السَّبْكِ قدْ يُنقَى الدَّغَلْ)** استعارةٌ تمثيليَّةٌ، حيث شبَّه هيئة وصول المرءِ إلى السِّيادةِ والرِّيادَةِ وطِيبِ الْخِصَال بحُسنِ الفعالِ وتنقيتِها من الأفعالِ الذميمة، بهيئةِ سبكِ المعدِن وتنقيتِهِ من الشَّوائب ومما يُفسِدُهُ ويُعكِّرُ صفوَهُ ورونقَهُ، فكذلك حُسْنُ الفِعالِ، فقدْ يصِلُ الإنسانُ إلى السِّيادةِ في قومِهِ بحُسْنِ فعالِهِ وطيبِ سيرتِهِ، وتخليصِها ممَّا يشوبُها أو يُدنِّسُها، كالمعدِن يجلو ويصفو بسبْكِهِ، وذلك يُؤكِّدُ أنَّ أصلَ الإنسانِ يعودُ إلى نفسِهِ، لا إلى أبٍ أو غيرِهِ، فكذلك المعدِنُ الأصيلُ لا يحتاج إلى مُعِينٍ له ليكونَ أصيلًا.

وتقديمُ المتعلِّق **(بِحُسْنِ السَّبْكِ)**؛ للتأكيدِ على أهميَّةِ أنَّ حُسْنَ الفِعَالِ وصالحَ الأعمالِ هوَ ما يُعتَبَرُ بهِ، وبهِ تتحقَّقُ السيادةُ، وليس بشرفِ النَّسَبِ.

ويستمرُّ في التدليلِ على أنَّ الإنسانَ لا يعتمد على أصلِهِ وفصلِهِ وحسبِهِ ونسبِهِ فقط، وإنَّما عليه أن يُثبتَ ذاته ويحقِّقَ شخصيَّتَه، بقولِهِ:

٤١- إنَّـــمَا الْوَرْدُ مِنَ الشَّوْكِ وَمَا ∴ يَنْـــبُتُ النَّرْجِسُ إِلَّا مِنْ بَصَلْ

بأنَّ الوردَ وهو النباتُ الجميلُ المنظر الطيب الرائحة، أصلُ منبته من الشوكِ الذي يُزهد فيه الإنسان ويؤذيه أحيانا، وكذلك النرجس وهو نباتٌ من الرياحين جميلٌ زهرُهُ طيبةٌ رائحتُهُ، قد ينبتُ وسط نباتِ البصلِ المعروف بالرائحةِ الكريهةِ التي يعافها الإنسان أحيانًا.

والقصرُ بـــــ(إنما) يفيد (إيجازًا في الكلام، وتمكينًا في التعبير، وتقريرًا له في الذهن)[1]، والشاعرُ بهذا القصرِ **(إِنَّـــمَا الْوَرْدُ مِنَ الشَّوْكِ)** يُؤكِّدُ للمتلقِّي

(١) من أسرار التعبير في القرآن حروف القرآن، د/ عبد الفتاح لاشين، مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٠٣هـــ- ١٩٨٣م، صـــ١٥٦.

صورةَ التغلُّب على المصاعبِ ليصلَ إلى طيب الأثرِ من حُسْنِ فعالِهِ، وأنَّ ذلك يحتاجُ إلى تغلُّبٍ على المصاعبِ والمتاعبِ؛ لكي يصلَ إلى مُبتغاهُ من السيادةِ والرِّيادةِ، تعتريه المصائبُ والمتاعبُ والأذى، كالشَّوكِ في الوردِ، والشاعرُ بذلكَ يدعوهُ إلى تحمُّلِ المشاقِّ في سبيلِ الوُصولِ إلى الشرفِ والعلوِّ.

وأسلوبُ القصر فيه تقريرٌ للمعنى في ذهن المخاطب، وحملٌ له على الإقرار به، فيثبتُ في النفسِ ويرسخُ، وصاغه بهذه الأداةِ (النفي والاستثناء) "ذات النبرةِ الحادَّةِ، والتي تُشير دائمًا إلى نبضٍ أعلى، وانفعالٍ بالحقيقةِ أقوى"(١).

ثمَّ ينتقل ابنُ الورديّ نقلةً أخرى في المعاني والوصايا التي يُضمِّنُها قصيدتَه، فيقول:

٤٤- اُكْـتُمِ الْأَمْرَيْنِ فَقْرًا وَغِنًى ∴ وَاكْسَبِ الْفَلْسَ وَحَاسِبْ وَمَنْ بَطَلْ

أي على الإنسان أنْ يكتم الحالة المادية والاقتصادية التي يمرُّ بها؛ حتَّى لا يكون محطَّ أنظار الآخرين، وأنْ يسعى للكسب، ولا يركن للخمول والكسل؛ فيكون عالةً على الناس.

والأمرُ في قولِهِ: **(اُكـتمِ)** للنُّصْحِ والتوجيهِ، وبينَ **(فَقْرًا وَغِنًى)** طباقٌ، وغرضُهُ تحديدُ حالتي الفقر والغنى؛ لأنَّ الإنسانَ في حالةِ الفقرِ قد تعوزهُ الحاجةُ إلى الكلامِ، وفي حالةِ الغنى قد يستدعيه ذلك إلى الفخر، فنصحه الشاعرُ بكتم الأمرين بالتمييزِ؛ ليجمع له المتضادَّيْنِ في آنٍ واحدٍ، وكأنَّه يحصُرُ ويختصرُ حالاتِهِ كلَّها في الفقر والغنى.

وهذا البيتُ فيه حكمةٌ جليلةٌ جدًّا، فحواها أنَّ السلامةَ في الصَّمتِ.

---

(١) دلالات التراكيب دراسةٌ بلاغيَّةٌ، د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة- القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م، صـ١٠٦.

والوصل بين الجمل (**اُكــتم، واكسَب، وحاسب**)؛ لاتحادها في الإنشائيَّة لفظًا ومعنًى، ووضوح المناسبة بينها.

والأمرُ في قوله: (**وَحَاسِبْ**) خرج إلى معنى التنبيه، وكأنَّ الشاعرَ يُنبِّه المُخاطبَ ليتوقَّفَ ويُفكِّر فيمن حوله ويجتنبه إنْ كان من أهلِ العالة.

ويواصلُ ابنُ الورديّ نُصحَهُ، قائلًا:

٤٥- وادَّرِعْ جِدًّا[١] وكَدًّا[٢] وَاجْتَنِبْ .: صُحْبَةَ الْحَمْقَى وَأَرْبَــابَ الْــخَلَلْ

ينصحُ بأنْ يتحصَّنَ الإنسانُ بالجدِّ والحزمِ في الأمورِ والفعالِ، وبأن يتجنَّبَ صحبةَ الحمقى من الناس، وأصحابَ الخَلَل الفكريّ والاعتقاديّ والمذهبيّ والسلوكي، وأطلقها؛ لتعمَّ كلَّ هؤلاء.

وبين (**ادَّرِعْ، وَاجْتَنِبْ**) ما يُلحقُ بالطِّباق؛ فما يلزمُ الادِّراعَ التمسُّكُ بالشيءِ، وما يلزمُ الاجتنابَ الابتعادُ عن الشيءِ.

وبين (**جِدًّا وكَدًّا**) جناسٌ مضارعٌ، فالجيم مخرجها "من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى"، والكاف مخرجها "من أسفل من موضع القاف قليلًا من اللسان ومما يليه من الحنك الأعلى"[٣].

وجمع بين الجدِّ والكدِّ؛ لأنَّهما السببُ المباشر والطريق المباشرُ في الوصول لمعالي الأمور، والجناسُ يُخفِّفُ من حدَّةِ الأمرِ، فتكرارُ النُّصحِ يبعثُ في النفسِ ثقلًا ونُفورًا، ولكنَّ مقتضى اللاميَّة يتطلَّبُ تكرارَ الأمرِ؛ لأنَّها ممَّا يُحفظُ، فكانَ استخدامُ الجناسِ موافقًا مستحسَنًا في مقامِهِ، وقد كان النبيﷺ يتعهَّدُ صحابتَهُ بالموعظةِ في أوقاتِ نشاطِهِم؛ كراهة السَّآمةِ والملَلِ منهُم، فعنِ

---

(١) الجِدُّ: الاجْتِهادُ في الأمْرِ، وضِدُّ الهَزْلِ، وقد جَدَّ يَجِدُّ ويَجُدُّ، وأجَدَّ. اللسان: (جدد).

(٢) الكَدُّ: الشِّدَّةُ، والإلْحاحُ، والطَّلَبُ. القاموس المحيط، (ك د د).

(٣) الكتاب، لسيبويه (ت١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٣، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ٤/ ٤٣٣.

ابن مَسْعُودٍ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ كَرَاهَةَ السَّآمَةِ علينا»(١).

وفي قولِ ابنِ الورديّ: **(وَاجْتَنِبْ صُحْبَةَ الْحَمْقَى وَأَرْبَابَ الْخَلَلْ)** أمرٌ باجتنابِ صُحبةِ الحمقى وأربابِ الْخلل؛ لأنَّ الحُمْقَ والْخَلَلَ من أدواءِ الأفعالِ، التي تُفسِدُها وتُضيِّعُ فائدتَها ومنفعتَها، فالعطْفُ بالأمرِ **(واجتنبْ)** يُؤكِّدُ حرْصَ الشَّاعرِ على أمرِ المتلقِّي بالادِّراعِ بالجدِّ والكدِّ؛ حتَّى لا يفسد عملُهُ، وتذهب فائدتُهُ ومنفعتُهُ.

وينصح ابنُ الورديّ كذلك، فيقول:

٥٩- قَصِّرِ الْآمَالَ فِي الدُّنْيَا تَفُزْ .:. فَدَلِيلُ الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الْأَمَلْ

يأمر ابنُ الورديّ الإنسانَ بأن لا يُطيل آمالَه في الدنيا؛ فإنَّ ذلك طريقه إلى الفوز والسعادة؛ لأنَّها تنقضي سريعًا، والعاقلُ من الناس هو من لا يعلِّق الآمالَ العريضةَ على الدُّنيا، وعليه أن يأخذ منها بقدَرٍ.

وفي هذا البيت يُتْبِعُ الأمرَ بادِّراعِ الجدِّ أمرًا آخرَ بتقصير الأملِ في الدنيا، فالإنسانُ ينبغي ألَّا تأخذه زينة الحياة الدنيا ولا غرورها، وهذا طريق الفوز والنجاةِ.

وكعادةِ الشاعر من أوَّل اللاميَّة يأتي بالأمرِ ثمَّ يتبعُهُ بتعليلٍ؛ ليزيد في تأكيد المعنى، ويحمل المتلقِّي على الإقرارِ بما فيه، كأنَّهُ يُقْنِعُهُ بالحُجَّةِ والدليل.

حيث قال: **(فَدَلِيلُ الْعَقْلِ تَقْصِيرُ الْأَمَلْ)**، وكأنَّه دليلٌ للشاعرِ نفسِهِ يُدلِّلُ بِهِ على طريق الفوزِ، وهو تقصير الأملِ في الدُّنيا.

---

(١) أخرجه البخاريُّ في صحيحه، كتاب العلم، بابُ (ما كان النبي ﷺ يتخوَّلُهم بالموعظة والعلم؛ كي لا ينفرُوا)، حديث رقم: (٦٨).

وفي قوله: **(تَقْصِيرُ الْأَمَلْ)** فيه حذفٌ للمُتعلِّق، أي (في الدنيا)؛ لذِكْرِهِ سابقًا في الشطر الأوَّلِ من البيتِ.

ويعلِّل لعدمِ الحرصِ على تطويل الآمال في الدنيا كما ورد بالبيت السابق، فيقول:

٦٠- إِنَّ مَنْ يَطْلُبُهُ الْمَوْتُ عَلَى ∴ غِرَّةٍ[١] مِنْهُ جَدِيرٌ بِالْوَجَلْ

أَيْ إنَّ الإنسانَ الذي يلاحقه الموت ويطلبه على غفلةٍ منه وفجأةٍ، ينبغي أنْ يكونَ على درجةٍ من الخوفِ كبيرةٍ، ومن ثَمَّ يستعدُّ للرحيل.

والتأكيد بـــ(إنَّ) والاستئنافُ بها تعليلٌ لمعنى البيت السابق، وتقديم المتعلِّق **(على غِرَّةٍ منه)** تقييدٌ للفعل **(يطلبهُ الموتُ)** بكونِ الطلبِ فجأةً وبغتةً.

والبيتُ فيه تحذيرٌ من فجْأةِ الموتِ دون الاستعداد له، وفيه تنبيهٌ على أخذِ الحذرِ بحُسنِ الفِعالِ؛ خوفًا من الموت واستعدادًا للرحيل.

وعرَّف المسندَ إليه بالموصوليَّةِ **(مَنْ يَطْلُبُهُ الْمَوْتُ عَلَى غِرَّةٍ مِنْهُ)**؛ "للإيماء إلى وجه بناء المسندِ على المسندِ إليه، والمراد ببنائه: جعلُه مسندًا بأن يذكر في الصلة ما يناسبه"[٢]، فمَنْ يطلبُهُ الموتُ فجأةً جديرٌ بالوجَلِ.

وعبَّر بالوجل دون الخوفِ مثلًا؛ لأنَّ الوجَلَ قلقٌ مع اضطرابٍ، و"الخوف خلاف الطمأنينة، يُقالُ: وَجِلَ الرَّجُلُ وَجَلًا إِذَا قَلِقَ ولمْ يطْمئِنَّ، ويقال: أنا من

---

(١) الْغِرَّةُ: غَفْلَةٌ فِي الْيَقَظَةِ. المعجم الوسيط، تأليفُ نخبةٍ من اللغويين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط٢، ١٩٧٢م.

(٢) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣هـ)، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م، ١/ ١٧٢.

هذا على وَجَلٍ، ومن ذلك على طُمأْنِينَةٍ، ولا يقالُ على خوفٍ في هذا الموضع، وفي القرآن ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢]، أي إذا ذُكرتْ عظمةُ اللهِ وقُدرتُهُ لمْ تطمئنَّ قلوبُهم إلى ما قدَّمُوهُ من الطاعةِ، وظنُّوا أنّهُم مُقصِّرُونَ، فاضْطربُوا من ذلك وقَلقوا، فليس الوجلُ من الخوفِ في شيءٍ"(١)، فمنْ يطلبُهُ الموتُ على غفلةٍ فيكون قلقًا وجِلًا.

****

(١) معجم الفروق اللغوية، ص٢٢٧.

المبحثُ الرَّابع

التعاملُ مع مختلفِ الفئاتِ والأحوالِ

وينتقل ابنُ الورديِّ إلى فكرةٍ جديدةٍ تندرج تحتَها عدةُ أبياتٍ، وهي النصح بخُلُق احترام الآخرين، وعدمِ الخوضِ في أغراضهم والتقليلِ من جهدهم، فيقول:

٤٦- لَا تَخُضْ فِي حَــقِّ سَادَاتٍ مَضَوْا ∴ إِنَّــهُمْ لَيْسُوا بِــأَهْلٍ لِلزَّلَــلْ

٤٧- وَتَغَاضَ عَــنْ أُمُورٍ إِنَّــهُ لَــــمْ ∴ يَــفُزْ بِالْحَمْدِ إِلَّا مَــنْ غَفَــلْ

يتوجَّه إلى الأمر المُباشر بعدم الانغماس والكلام بالباطل في حقِّ مَنْ مَضَى من أهل الفضل والريادة، حيث إنَّهم لم يقعوا في الخطأ عامدين قاصدين، ويجب توقيرُهم على اجتهادِهِم وجهدهم.

وينبغي أنْ يتغافلَ الإنسانُ عن كثيرٍ من الأمور، وقد قيل: "إنَّ نصفَ العافيةِ في التغافُلِ"، وخاصةً في الأمور التي لا تشفع ولا تنفع، حيث إنَّ من يتغافل فإنَّ الناسَ تحمده أي تُثْني عليه وتوقِّره.

وهنا صدَّر بالنَّهْي أولا، ثمَّ أتبعه بالتعليل، مستخدمًا (إنَّ)، ثمَّ بالأمر، وعلَّله كذلك بـــ(إنَّ)؛ تمكينًا للمعنى في ذهن السامع، وتقريرًا له في عقلِه.

وقد خرج النَّهيُ في قولِهِ: **(لَا تَخُضْ)** إلى معنى النُّصْح والْإرشادِ لجميلِ الفِعالِ، وخرج الأمرُ أيضًا في قولِهِ: **(وَتَغَاضَ عَــنْ أُمُورٍ)** إلى النُّصْحِ والتَّوْجيه بالتغافُلِ عن أمورٍ، وأتى بها**(أُمُورٍ)** مُنَكَّرةً؛ لتهوينِها والتقليلِ من شأنِ الصَّغائرِ التي ينبغي على الإنسانِ أنْ يتخطَّاها ويتغاضى عنها.

ويأتي التعليلُ كعادة الشاعرِ في سوق الحُجَّةِ وإقناعِ المُخاطَبِ، وكأنَّه بتكرارِ الأمرِ أو النَّهْيِ يُتْبِعُهُ بتعليلٍ؛ لكي يُذْهِبَ عن نفْسِ المُخاطَبِ السَّأَمَ والثِّقَلَ من نصيحتِهِ، بحيثُ يسوقُ لهُ الدَّليلَ الذي يُهيِّئُ نفسَهُ لقبولِ النُّصْحِ،

فيقول: **(إِنَّـــهُ لَـــمْ يَـــفُزْ بِالْحَمْدِ إِلَّا مَنْ غَفَلْ)**، وفيه قصرٌ حقيقيٌّ بغرضِ التَّقريرِ والتَّأكيدِ على قيمةِ التَّغافُلِ عن صغائرِ الأمور، فهو سمتُ أهلِ العلُوِّ والسِّيادةِ.

ثمَّ يقول:

٤٨- لَيْسَ يَخْلُو الْمَرْءُ مِنْ ضِدٍّ وَلَوْ ∴ حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَاسِ الْجَبَلْ

أي إنَّ الإنسانَ مهما اكتسب من المعالي والمحامد لا يخلو من أناسٍ يعارضُونه ويخالفُونَه، حتَّى لوْ عاش في عزلةٍ عنهم وحيدًا فريدًا في أعلى قمَّة الجبلِ.

وهذا البيتُ توجيهٌ وتنبيهٌ للمخاطَبِ بعدمِ التوقُّفِ عن التَّغافُلِ عن المعارضين والمخالفينَ له.

وقوله: **(وَلَوْ حَاوَلَ الْعُزْلَةَ فِي رَأْسِ الْجَبَلْ)** كنايةٌ عن البُعدِ الشديدِ عن المعارضين والمخالفين.

ويواصلُ نُصحَهُ قائلًا:

٤٩- مِلْ عَنِ النَمَّامِ وَازْجُرْهُ فَمَا ∴ بَلَّغَ الْمَـــكْرُوهَ إِلا مَـــنْ نَقَـــلْ

ويأمرُ بالبعدِ عن الصَّاحب النمَّام الذي ينقل الكلامَ بين الناس لغرضِ الإفسادِ والوقيعةِ بينهم، فيجبُ أنْ نَميلَ عنه، أي نتجنبه بل ونردعه ونردّه؛ لأنَّه هو نفسه الذي يسيء إليكَ بنقلِه لكَ ما يسوؤُك وينوؤُك عن الآخرين.

وقوله: **(فَمَا بَلَّغَ الْمَـــكْرُوهَ إِلَّا مَـــنْ نَقَـــلْ)** تعليلٌ للأمرِ السَّابق بالميل عن النمَّام وزجره، وقوَّى التعليلَ وأبرزَه القصرُ بالنفي والاستثناء، وحذف مفعول الفعل **(نَقَـــلْ)**، أي (الكلام)؛ لأنَّ النميمةَ لا تكون إلا بنقل كلامِ الناسِ على وجه الإفسادِ.

٥٠- دَارِ جَارَ السُّوءِ بِالصَّبْرِ وَإِنْ ∴ لَـــمْ تَجِدْ صَبْرًا فَمَا أَحْلَى النُّقَلْ

وينبغي أنْ يصبرَ الإنسانُ على أخلاق جاره وخاصة الجار السيِّءِ الخلُق فيداريه ويجاريه، ولا يعلن العداوة له، فإنْ ضاق به ذرعًا فلينقل بعيدًا عنه؛ فإنَّ في ذلك الراحةَ التامَّةَ الكاملةَ، وكأنَّ الشاعرَ يستحضِرُ وصية سيدنا محمدﷺ بالجارِ، ويُنفِّذها ويدعو إليها، وهي قوله ﷺ: «لَا يَزَالُ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»(١).

والأمرُ بالمُداراةِ **(دارِ جارَ السُّوءِ)** فيه لينٌ ورفقٌ بهذا الجارِ السَّيِّئِ، وكذلكَ في الوصيَّة الأخرى لمْ يأتِ بالأمرِ المُباشِرِ، وإنَّما صوَّره في صيغةِ أفعلِ التفضيلِ **(أَحْلَى)**، وكأنَّهُ يترفَّعُ عن إيذاءِ هذا الجارِ بأيِّ حالٍ من الأحوال، حتَّى وإن كان سيِّئًا.

ثمَّ ينصحُ الشاعرُ باتِّقاء شرِّ السلاطين وخاصة ذوي القهر والغلبة، فيقول:

٥١-جَانِبِ السُّلْطَانَ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ .: لا تُــعَــانِدْ مَنْ إِذَا قَــالَ فَعَلْ

ويوجِّهُ إلى أن لا يعادي الإنسانُ الحاكمَ أو مَنْ يقومُ مقامَهُ، وأخذ الحيطة والحذر من بطشه، وعدم المعاندة معه، وخاصةً إذا كانوا من ذوي الفتك والقتل؛ لكي يُجنِّبَ الإنسانُ نفسَهُ الهلاكَ والدَّمارَ، حيث إنَّ السلطانَ عادةً ما يستطيع أنْ ينفذ تهديدَه ووعيدَه.

وقوله: **(جانِبِ السُّلطانَ)** فيه حذفُ مضافٍ، والتقدير (جانبْ مُصاحبةَ السلطانِ)، وجملة **(لا تُــعــانِدْ مَنْ إذا قــالَ فَعَلْ)** تأكيدٌ كذلك للجملتين السابقتين **(جَانِبِ السُّلْطَانَ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ)** الموصولتين بالواو للتوسط بين الكمالين، وقد فُصلت جملة **(لَا تُــعَــانِدْ مَنْ إِذَا قَــالَ فَعَلْ)**؛ لكونها تأكيدًا لهما، فالأمر بمجانبة مصاحبة السلطان والحذر من بطشه هو أيضًا النَّهْيُ عن معاندتِهِ، والفعل **(تُــعــانِدْ)** يدلُّ على المعارضة والمخالفة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، عن ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب (الأدب)، باب: الوصاءة بالجار، رقم ٥٦٦٩.

وجملة **(مَنْ إِذَا قَــالَ فَعَلْ)** كنايةٌ عن قوَّةِ السلطان، وتأكيد وقوع معاقبته بمن يعاندُهُ.

وبين القولِ والفعلِ طباقٌ أكَّدَ وقوعَ فعل القولِ، والتعريف بالموصوليَّة **(مَنْ إذا قــالَ فَعَلْ)**؛ لإبرازِ صِفةِ القهرِ والغلبةِ في السُّلْطَانِ الذي إذا قال فعلَ، فلا تأخذُهُ شفقةٌ أو رحمةٌ.

ثمَّ يقولُ:

٥٢- لَا تَلِ الْأَحْكَــامَ إِنْ هُمْ سَأَلُوا ∴ رَغْــبَةً فِيكَ وَخَالِفْ مَنْ عَذَلْ

يحذِّرُ ابنُ الورديِّ من السَّعْيِ الْحثِيثِ إلى تولِّي السُّلْطةِ وحُكْمِ النَّاسِ حتى لو كان الناسُ يرغبونَ منك ذلك؛ لخطورة سياسة الناس ومسئولية الحاكم والحكم أمام الله تعالى في الدنيا والآخرة، ويأمر ابنُ الورديّ في نهاية البيت أن يخالف الإنسان من يقوم بلومه على ذلك.

والبيت نهيٌ عن اتخاذ الولاية حتَّى مع رغبةِ الناس فيمن يتولَّى.

وقدَّم النهيَ **(لا تَلِ)** على الشرط **(إِنْ هُمْ سألوا)**؛ لكونِهِ الأهمَّ بالنسبة لابنِ الورديّ.

ثمَّ يُعلِّلُ بقولهِ:

٥٣- إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ لِمَنْ ∴ وَلِــيَ الأَحْكَامَ هَذَا إِنْ عَــدَلْ

وهذا البيتُ تعليلٌ لما ورد في سابقه، فيشير هنا إلى أنَّ جُلَّ الناس بفطرتهم يكرهون ذوي السُّلطة والحُكم؛ لأنَّ النفسَ تأنفُ وتضجر ممن يتسلَّط عليها حتى لو كان عادلًا، فما بالُكَ لو كانَ غيرَ ذي عدل؟ لا شكَّ أنَّ العداوةَ تكون أشدَّ وأمضَّ وأحدَّ.

وأكَّد بـــ(إنَّ) في قوله: **(إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ)**؛ لغرابة الحكم، أو لأنَّ هذا ممَّا يخالفُهُ المنطق، واسمُ الإشارةِ في قوله: **(هَذَا إِنْ عَدَلْ)** للقريب يفيدُ تأكيدَ هذا الحكم في ذهن المتلقي.

وإنْ في قوله: **(هَذَا إِنْ عَدَلْ)** شرطيَّةٌ تفيد القلَّةَ والنُّدرةَ، وحذف جواب الشرط؛ لدلالة الحكم السابق عليه **(إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ)**، والتَّقديمُ هنا أيضًا لكونه مناطَ الاهتمام.

٥٤- فَهْوَ كَالْمَحْبُوسِ عَنْ لَذَّاتِـــهِ ∴ وَكِلَا كَفَّيْهِ فِـــي الْحَشْرِ تُغَـــلْ

يقول إنَّ مَنْ يلِي الولايةَ يعيشُ عيشةً بعيدةً عن اللَّذَّاتِ والْمُتعة، فهو أشبه ما يكون بإنسانٍ قد سُجِنَ لا يشعر بلذَّة الدُّنيا ومتاعِها، حيث لا يمتع كما يمتع إنسانٌ نفض يديْه من حقوق العباد، وإذا كان يومُ القيامة فإنَّ هذا الحاكمَ إنْ كان ظالمًا فإنَّه ستُغلُّ يده وتُقيَّد؛ لأنَّه أطلقها في ظلم العباد إبَّانَ ولايتِهِ.

ويلحظ استعانة ابن الورديّ هنا بالتشبيه الذي قرَّب المعنى ووضَّحه، وجعله في صورةٍ بيانيَّةٍ ماثلةٍ بارزةٍ ظاهرةٍ، فالمشبَّهُ هو الحاكمُ الذي تُكبِّلُهُ حقوق العبادِ، فيقفُ في الحسابِ عليها طويلًا، والمُشبَّهُ به هو حالُ المحبوسِ المُقيَّدِ بالأغلالِ الذي لا يستشعِرُ أيَّ لذَّةٍ، ولا يتمتَّعُ بأيِّ نعمةٍ، ووجه الشَّبَهِ التَّقييدُ بشيءٍ ثقيلٍ يصعُبُ الفِكاكُ عنه والخلاصُ منه.

وقولُهُ: **(وَكِلَا كَفَّيْهِ فِـــي الْحَشْرِ تُغَلْ)** فيه نوعٌ من التشديدِ في التَّخْويفِ من قِبَلِ ابنِ الورديّ؛ تحذيرًا من شدةِ وطأةِ الْحُكْمِ، فجسَّدها بشيءٍ حسِّيٍّ، وهو غُلُّ الكفَّيْنِ في الحشر.

وفي الفعلِ **(تُغَلُّ)** استعارةٌ تصريحيَّةٌ تُصوِّرُ وقوفَ الحاكمِ يومَ القيامة في الحشْرِ للحسابِ، بمَنْ قيَّدهُ قيْدُهُ وأوقفه عن الحركةِ، فهو في الآخرةِ ممنوعٌ من دخولِ الجنَّةِ، ومُقيَّدٌ عنها بحقوقِ العبادِ، وفي الدنيا مُقيَّدٌ وممنوعٌ عن الحركة واللذَّةِ والخلاصِ من هذا القيدِ إلا إذا انتهت مدَّةُ حكمِهِ في الدنيا، ومدَّةُ حسابِهِ في الآخرةِ.

وبلاغةُ الاستعارةِ تكمنُ في تصوير صورةِ الحُكْمِ في كونِهِ قيدًا في الدنيا والآخرة، فلا هو يجعلُ الدنيا مُمْتِعةً، ولا يجعلُ الآخرةَ هيِّنةً في الحسابِ

والجزاءِ، فصورتُهُ ذميمةٌ، أعان اللهُ مَنْ كلَّفَهُ به؛ ولذلك جعل اللهُ جزاءَ الإمامِ العادلِ أنْ يُظِلَّهُ اللهُ في ظلِّهِ، يومَ لا ظلَّ إلَّا ظِلُّهُ؛ جزاءً لما يتحمَّلُه من مشقَّةٍ وتعبٍ.

ويستأنفُ ابنُ الورديّ قائلًا:

٥٥- إِنَّ لِلنَّقْصِ وَالِاسْتِثْقَالِ فِـــي لَفْظَةِ .: الْقَاضِـــي لَوَعْظًـــا أَوْ مَثَـــلْ

٥٦- لَا تُـــوَازَى لَـــذَّةُ الْحُكْـــمِ بِـــمَا .: ذَاقَهُ الشَّخْصُ إِذَا الشَّخْصُ انْعَزَلْ

هذان البيتان تعليلٌ لما سبقهما، حيث يؤكِّدُ أنَّ متعةَ السلطةِ ولذَّة سياسةِ الناس وحُكْمِهم لا تساوي شيئًا أمام لذَّة العزلة عن الناس، وعدم الانغماس فيما لهم من حقوقٍ وما عليهم من واجباتٍ، حيث إنَّ إمرةَ الناس وسياستَهم تكليفٌ لا تشريفٌ، قال ﷺ: «وَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(١).

فمهما كان في الحكم من لذةٍ فعند انعزال الشخص عن ولايته يذوقُ من المرارةِ والحسرةِ ما يُذْهِبُ لذّتَها.

والبيت الخامس والخمسون فيه (تلميحٌ بما أعطته صناعةُ الإعراب من أنَّ القاضي منقوصٌ مُستثقَلٌ عليهِ بعضُ الحركاتِ، وإنَّ المنقوصَ عند المُعْرِبينَ ما آخِرُهُ ياءٌ مكسورٌ ما قبلَها من الأسماء، كأنَّهُ أشار إلى أنَّ القاضي منقوصُ الحظِّ من الثناء الحسنِ في الدُّنيا، مُستثقَلُ الحركاتِ)(٢).

فالنقصُ والاستثقالُ في صفة القاضي هو أن يكونَ حكمُهُ ناقصًا ثقيلًا غيرَ عادلٍ، وفي الاسم المنقوصِ نقصٌ وثِقَلٌ، فهو اسمٌ منقوصٌ آخرُهُ ياءٌ لازمةٌ قبلَها كسرةٌ، فإذا كانتْ هذه سمةَ الكلمةِ من جهةِ اللفظِ، فما بالُنا بما يترتَّبُ عليها من جهة المعنى.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، بَابُ تَأْوِيلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ}، حديث رقم (١٨٢٩).

(٢) التحفة النديَّة في شرح اللامية الورديَّة، صـــــ ١٣١.

والبيت **(لَا تُوَازَى لَذَّةُ الْحُكْمِ بِــمَا ذَاقَهُ الشَّخْصُ إِذَا الشَّخْصُ انْعَزَلْ)** فُصِلَ بيْنَه وبينَ سَابِقِهِ؛ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصال؛ حيثُ إنَّهُ تفسيرٌ وتبيينٌ وتوضيحٌ لمعنى البيت السَّابق.

وينصح ابنُ الورديِّ كذلك بعدم التلهف واللهث لتولي المناصب العالية، فيقول:

٥٧- فَالْوِلَايَاتُ وَإِنْ طَابَتْ لِمَنْ .: ذَاقَــهَا فَالسُّمُّ فِــي ذَاكَ الْعَسَلْ

ويدلِّلُ بهذا البيتِ على السابق، فيقول إنَّ ولايةَ الخلْق مهما طابتْ واستقامتْ لصاحبِها إلا أنَّها أشبهُ ما تكونُ بالسُّمِّ القاتلِ وُضِعَ في العسلِ الذي يشتهيه الناس.

ويلحظ هنا تشبيهُه السلطة بما يكون فيها من أخطارِ وضررِ الولايات، مع ما فيها من لذَّةٍ وإغراءٍ بالعسل في لذَّته، ووجه الشبه وجودُ شيءٍ ضارٍّ أو قاتلٍ مختفٍ في لذَّةِ شيءٍ طيِّبٍ في ظاهره.

والتعبيرُ بقولِهِ: **(لمنْ ذاقَــها)** يُصوِّرُ الإحساسَ بالمرارةِ والحسْرةِ بالتَّذوُّق الحسِّيِّ للطعامِ المُرِّ؛ وذلك لتحصيل المفارقةِ الشديدةِ بين سعادة الولايةِ وحسرةِ الانعزالِ.

وهذا المعنى يُصوِّرُهُ ما يُلحَقُ بالطباقِ بين **(لَذَّةُ الْحُكْمِ، انْعَزَلْ)** في قول الشاعر في البيت السابق: **(لَا تُوَازَى لَذَّةُ الْحُكْمِ بِــمَا ذَاقَهُ الشَّخْصُ إِذَا الشَّخْصُ انْعَزَلْ)**.

وتكملةً للبيتين السابقين حيث يُصرِّحُ بأنَّ المنصبَ الَّذي يَشْغَلُهُ الإنسانُ إنَّما هو في الحقيقة نصَبٌ وتعبٌ، فيقول:

٥٨- نَصَبُ الْمَنْصِبِ أَوْهَــى جَلَدِي[١] .: وَعَنَائِــي مِنْ مُدَارَاةِ السَّــفَلْ

(١) الْجَلَدُ: القوة والشدة. اللسان: (جلد).

بل إنَّ كلمة المنصب ذاتها اشتُقَّتْ من النَّصَبِ أي التعب، فالمنصبُ أضعفَ قوتَهُ، وأوْهَنَ عظامَهُ، واضطَّرَّ إلى مداهنة الأراذل من الناس ومنافقتهم؛ لكي يُسيِّرَ الأمورَ.

ويلحظ استعانته بالجناس الاشتقاقيّ بين كلمة (نَصَب) وكمة (الْمَنْصِب)، والفرق في المعنى واضحٌ، فالأولى بمعنى التَّعَبِ، والأُخرى بمعنى السُّلْطَة.

وبينَ الكلماتِ **(نَصَبُ، المنصِب، أوْهَــى، وعنائــي)** مُراعاةُ نظيرٍ جمعتْ كلَّ صورِ التَّعَبِ والْأَلَمِ الذي يُحيطُ بصاحبِ المنصِبِ، وفي مراعاةِ النَّظيرِ تعبيرٌ قويٌّ عن التعبِ والمشقَّةِ التي تُنفِّرُ النفسَ من طلب المناصبِ والسُّلطةِ، فكأنَّ البيتَ بنفسِهِ يُنفِّرُ النَّفسَ دونَ أمرٍ أو نهيٍ.

ثمَّ يستأنِفُ في النُّصحِ والإرشادِ، فيقول:

٦١- غِبْ وزُرْ غِبًّا تَزِدْ حُبًّا فَمَــنْ ∴ أَكْثَــرَ التَّرْدَادَ أَقْــصَاهُ الْمَلَلْ

وينصح بأن يغيب الإنسان عن أحبابه ولو لفترةٍ وجيزةٍ؛ فإنَّ هذا ممَّا يبعث على التشوُّق والتشوُّف إليه، وإذا زار قريبًا أو صديقًا فعليه أن لا يُكْثِرَ من ذلك؛ حتى لا يملَّ، والغِبُّ معناه التباعد بين أوقات الزيارة.

ويلحظ استعانة الشاعرِ بالطباق بين كلمتي **(غِبْ، وَزُرْ)**، وبالجناس المضارع بين **(حُبًّا وغِبًّا)**، والاستعارة المكنيَّة في قوله: **(أَقْصَاهُ الْمَلَلُ)**، حيث شخَّص الملَلَ وجعله كشخصٍ يُزهِّدُ إنساناً، فيُبْعِدُهُ ويُقصيه.

ويُمكنُ أن يكونَ الإسنادُ مجازًا عقليًّا، بإسنادِ الإقصاءِ إلى الملَلِ، لعلاقةِ السَّببيَّةِ، فالملَلُ سببُ الإقصاءِ، وليس مَنْ يُقصِي.

وكعادةِ الشاعر يُعلِّلُ للنصيحةِ بالتباعُدِ بين أوقاتِ الزِّيارةِ، وذكر الأثرِ المترتِّبِ على عدمِ الأخذِ بها، وهو أنْ تكونَ عاقبتُهُ الإقصاء، فكلُّ دليلٍ هو تذكيرٌ بعاقبةِ الأمورِ، وهذا مناطُ الوعظِ والإرشادِ.

٦٢- لَا يَضُــرُّ الْفَضْلَ إِقْلالٌ كَمَا .: لَا يَضُرُّ الشَّمْسَ إِطْبَاقُ الطَّفَلْ

ويقول بأنَّ الإقلالَ في الزيارة لا يضرُّ بالشرف والفخر، ويسوق دليلًا على كلامه هذا بأنَّ الشمسَ بنورِها الساطع وضوئِها اللامع لا يضرُّها الطَّفَلُ، ومعناه الظلمة التي تعقب غروبَ الشمس، فإنَّها سرعانَ ما تزول، وتعود الشمس أدراجَها.

وقد أورد هذا المعنى بصورةٍ من صور البيان، وهي التشبيه التمثيليّ، حيث شبَّه حالَ الإنسان الذي يزور مرةً بعد مرةٍ بالشمس التي تغيب وتعاود الظهور، فكلَّما جاء الليلُ تشوَّقتِ النفسُ إلى النورِ وانتظرتْهُ، فكذلك حالُ مَنْ يزورُ صاحبَهُ، فهو في وقتِ غيابِهِ كوقتِ غروبِ الشمسِ، ينتظرُ صاحبُهُ رجوعَه بعد غيبتِهِ، فيكونُ لهُ في النَّفسِ شوقٌ وحبٌّ في رؤيتِهِ بعد غيابِهِ.

وتكرار الفعل المنفيِّ **(لَا يَضُــرُّ)** للتسويةِ بينَ الصُّورتيْنِ في الحكمِ، وهذا من جودةِ المعنى عند الشَّاعرِ، وجودةِ ترسيخِهِ في ذهنِ المتلقِّي، فالعدْلُ في الحكمِ تميلُ إليه النَّفسُ، وهو أسرعُ قبولًا في نفسِ المتلقِّي، فاستخدمه الشاعرُ ليُقنِعَ المخاطبَ بهذه النصيحة الثَّمينةِ؛ لأنَّ من شأنِ التعلُّق بالصَّاحبِ أو الحبيبِ أن يغلبَ صاحبَهُ، "والتكرارُ من عناصرِ الموسيقى الداخليَّة، وهو عنصرٌ ظاهرٌ غيرُ خفيٍّ، يدلُّ على تمكُّنِ الكاتِبِ واقتدارِهِ في تصنُّعِهِ، وعلى موهبته الموسيقيَّة في انتقاءِ الحرفِ أو اللفظةِ التي يكرِّرُها"(١).

ويُوالِي نُصحَهُ قائلًا:

٦٣- خُذْ بِنَصْلِ السَّيْفِ وَاتْرُكْ غِمْدَهُ .: وَاعْتَبِرْ فَضْلَ الْفَتَى دُونَ الْحُلُلْ

ويوجِّه إلى الحَزْمِ والعَزْمِ والحَسْمِ في كلِّ أمرٍ يتناوله الإنسانُ ويتعامل معه، مُستعينًا في إيضاحِ هذا المعنى بطريق الكنايةِ؛ بأنْ يأخذَ الواحدُ منَّا

(١) نثر الببغاء، أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزوميّ، د/ علي إبراهيم أبو زيدٍ، ط٢، دار المعارف- القاهرة، ١٩٩٤م، صـــــ٤٢٣.

بنصْلِ السيف، والنصل هو حديدة السيف والسِّكين، ويتركَ الغِمْدَ وهو ما يحفظ هذه الحديدةَ، وعادةً ما يكون الغمدُ ناعمَ الملمس، ويقول بأنَّ شرفَ المرءِ وفخرَه في الحركةِ والنشاطِ وعدمِ إطالةِ الحُلُول في مكانٍ بعينه.

والحزمُ في تكرارِ الأمرِ في قولِهِ: **(خُذْ، وَاتْرُكْ، وَاعْتَبِرْ)** يدفعُ إلى الإسراعِ في تلبيةِ الطلبِ في الأخذِ بمعالي الأمورِ، وكأنَّ الإنسانَ في حربٍ يقودُها مع نفسِهِ، يأخذُ بالأمرِ الحازمِ فيها، فيهزمُ هواها بالمكوث في اللذَّاتِ دون الفضائلِ.

وبين **(نَصْل، السَّيْف، غِمْدِه)** مراعاةُ نظيرٍ تُحدِثُ تناسبًا دلاليًّا يتجاوبُ معه المتلقِّي ويرتاح إليه.

والأفعال الثلاثة **(خُذْ، وَاتْرُكْ، وَاعْتَبِرْ)** موصولةٌ بالواو؛ لاتِّحادها في الإنشائيَّةِ لفظًا ومعنًى، ووضوح المناسبة بينها، وقد تقيَّد كلُّ فعلٍ منها بقيودٍ عملت على تربية الفائدة وإيضاح المعنى، (ومجيءُ الكلام مقيَّدًا يجعلُ التركيب كلَّه جزءًا واحدًا، لا تظهر صورةُ المعنى إلا بذكرِ آخرِ شيءٍ فيه، ولوْ لمْ تأتِ بالقيدِ ما أفاد التركيبُ معنًى، فضلًا عنْ أنْ تكونَ له مزيَّةٌ)[١].

ثمَّ يحثُّ على السعي في الأرض والسفر لطلب العلم والرزق، فيقول:

٦٤- حُبُّكَ الْأَوْطَانَ عَجْــزٌ ظَاهِرٌ ∴ فَــاغْتَرِبْ تَلْقَ عَنِ الْأَهْلِ بَدَلْ

أي إنَّ الإنسان الذي يركن للمكث واللبث في وطنه دون أن تشرئب نفسه للحركة والسعي والاغتراب لطلب المعالي هو إنسانٌ عجزُهُ ظاهرٌ بارزٌ، ومن ثَمَّ ينبغي أن يسعى المرءُ للاغتراب عن الوطن، فسيجد عوضًا عن وطنه الأوَّل يرضيه ويغنيه ويكفيه.

---

(١) القيود في الدرس البلاغيّ، د/ عادل محمد محمد الأكرت، حوليَّة كلية اللغة العربية بنين بجرجا، العدد السادس عشر، الجزء الخامس، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م، صـ٣٨٦٥.

وهذا تزهيدٌ للنفس عن البقاء في مكانٍ واحدٍ؛ ولذلك قال: **(حُبُّكَ الأوْطانَ عجــزٌ ظاهرٌ)**، ففيه تنفيرٌ للنفس من الإقامة والحُلُولِ في مكانٍ بعيْنِهِ؛ لأنَّ ذلك يجعل للإنسان قصورًا في عقله وفي شعوره وكافة مداركه، وقد جمع ذلك كلَّه التعبيرُ بالمصدر **(عَجْــزٌ)** ووصفه بــ **(ظاهرٌ)**، وذلك يستدعي الحميَّةَ والتأهُّبَ النفسيَّ للحركةِ والاغترابِ في طلبِ الأفضلِ.

والتعبير بالجملة الاسمية **(حُبُّكَ الأوطانَ عجــزٌ)**؛ لتقريرِ الحكمِ، وهو أنَّ المُكثَ في مكانٍ بعينِهِ صفةٌ ذميمةٌ، هي عجزٌ ظاهرٌ قد يدفعُ الإنسانَ إلى التَّخلِّي عن الوطنِ، فقد يجدُ خيرًا منهُ.

ويعلِّلُ ابنُ الورديّ للمعنى الذي ساقه في البيت السابق، فيقول:

٦٥- فَبِمُكْثِ الْمَاءِ يَــبْقَى آسِنًا ∴ وَسَــرَى الْبَدْرِ بِهِ الْبَدْرُ اكْتَمَلْ

أي إنَّ الماءَ الذي لا يتحرَّك في مكانِهِ وليس له رافدٌ ولا وافدٌ، فإنه يأسِن أي يتغيَّر لونُهُ وتتغيَّرُ رائحتُه، وقد لا يُطاق ولا يُتحمَّل، وأيضًا يقول بأنَّ الهلالَ لا يكتمل ولا يصل لدرجة الاكتمال والبدر إلَّا بحركةِ الأيَّامِ ومُرُورِها.

وقدَّم الجار والمجرور**(فبمُكثِ الماءِ)** على الفعل **(يَــبْقَى)**؛ للتركيز على ذمِّ المُكثِ في المكان والإقامة فيه طويلًا دون طلب المعالي، ولتحذير المتلقي من فعل ذلك.

وفي الشَّطرِ الأوَّل من البيتِ**(فَبِمُكْثِ الْمَاءِ يَــبْقَى آسِنــًا)** تشبيهٌ ضمنيٌّ صوَّر به حالَ الإنسان الذي يقيم في مكانٍ بعينه لا يتحرك، بالماء الراكد الذي يأسن أي يتغير لونه ورائحته بسبب طول مكثه، ووجه الشبه الأثر المترتب على المُكْثِ والحُلُولِ في مكانٍ واحدٍ، فيكون تأثيره أسوأ، وعاقبته سيئةً في كلٍّ.

وقوله: **(وَسَــرَى الْبَدْرِ بِهِ الْبَدْرُ اكْتَمَلْ)** يُدلِّلُ به على الصورة التشبيهيَّة في الشطر الأول بصورةٍ أخرى رائعةٍ، وهي صورة حركة

البدر الذي لا يكتمل إلَّا من خلال الحركةِ في مَدَارِهِ، فإذا كانتِ الحركةُ هيئتُها هكذا في جمادٍ، فكيف بحركتِها في الإنسان؟، فهو يريد أن يقول للمخاطب إنَّ أجملَ صورة منه تخرج من خلال حركته وتغيير سعْيه في كلِّ مجالٍ، فلكلِّ سعيٍ نتيجةٌ مغايرةٌ تَزِيد من جمالِ العقلِ والإدراكِ، ومن ثَمَّ الفعال والأقوال.

ثمَّ يوجِّهُ ابنُ الورديُّ نداءً، فيقول:

٦٦- أيُّـــها العائبُ قــولي عبثا ∴ إن طيــبَ الــوردِ مــؤذٍ للجُعَلْ[(١)]

وفي هذه المرَّة يُخاطب معاتبًا ولائمًا على من يعيب قوله ولا يُعجبُه كلامه ولا يروقه حديثه، عابثًا يعني هازلًا لا جادًّا، فيقول له إنَّ رائحة الورد تؤذي الجُعَل وهو حيوانٌ أشبهُ ما يكون بالْخُنْفُسَاءِ يعيش بالأماكن النديَّة.

وتصديرُ البيتِ بالنداء **(أيُّـــها العائبُ)** فيه تشويق وجذبٌ للمتلقي، وحملٌ له على الانتباه والتأمُّل، ولكنَّه خالف توقُّعَ الملتقي بتصدير البيت بالنداء، والنداء يكون لأمرٍ مهمٍّ فإذا به ذمٌّ للمنادى العائبِ قولَ الشاعرِ.

وهذا من ذكاء الشاعر، فبعد تكرار الأمر والنهي قد يعيب بعضُ الناس في قوله بتكرار النُّصح؛ لأنَّ ذلك ثقيلٌ على النفس ومؤذٍ لها، فقد دلَّل على جمالِ قولِه أو جعل قوله طيبًا جميلًا كجمال الورد في شكله وطيب رائحته.

واستعان هنا على إيرادِ معناه وتوضيحِهِ بالتشبيه كذلك، فشبَّهَ كلامَه بالطِّيبِ، وشبه العائبين قوله بالجُعَلِ وهو الخنْفُسَاء، فالعائبون الذين يتأذَّون من طيبِ كلامِهِ كالجُعَلِ الَّذِي يتأذى من طيبِ الورد، "وكأنَّكَ لا ترى أنَّ فِي الْجُعَلِ الَّذِي مَتَى دَفَنْتَهُ فِي الْوَرْدِ سَكَنَتْ حَرَكَتُهُ وَبَطَلَتْ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ رُوحُهُ، ومَتَى أَعَدتَّهُ إِلَى الرَّوثِ انْحَلّتْ عُقْدَتُهُ، وعَادَتْ حَرَكَتُهُ، ورجَعَ حِسُّهُ- أَعْجَبَ

(١) الجُعَل: دابَّةٌ سوداءُ من دوابِّ الأَرضِ، وهو حيوانٌ معروفٌ كالخُنْفُسَاءِ. اللسان: (جعل).

الْعَجَبِ، وَأَحْكَمَ الْحِكَمِ!"[١]، وهو تشبيهٌ ضمنيٌّ بغرضِ الذمِّ لهُم والمدحِ لقولِهِ، والبيت كلُّهُ كنايةٌ عن حُسْنِ قولِهِ وخُبْثِ نُفُوسِهِمْ.

ثمَّ يُوجِّهُ النصحَ والتوجيهَ بعد النداء، فيقول:

٦٧- عَدِّ عَنْ أَسْهُمِ قَوْلِي وَاسْتَتِرْ .: لَا يُصِيبَنَّكَ سَهْمٌ مِنْ ثُعَلْ

ويُكمل معنى البيت السابق وينصح مَنْ يَعِيبُ كلامَه ألَّا يلتفت إليه ولا يمرَّ عليه، وعليْه أن يستترَ؛ حتَّى لا يصيبه سهمٌ من ثُعَل، ويقصد به "الجيشُ الكثيرُ الجرَّار"[٢]، وكأنَّه ينصحُ مَنْ يُخالِفُ طريقتَه عليه أن لا يناصبَه العداءَ وإلَّا لقيَ ما لا يُحمد عُقباه.

وقد شبَّه كلامَه بالجنودِ الَّتي تُدافِع عن صاحبِها وترمي أعداءَه بالأسهم الصائبة، وفيه تحذيرٌ للعدوِّ من نفسِهِ، وتهديدٌ ووعيدٌ له من كلامِهِ.

فالأمرُ معناه التحذيرُ والتخويفُ من بطشِ قولِه، فقولُهُ كالجيشِ الجرَّارِ الذي يُصيبُ الأعداءَ بالأسْهُمِ، والتأكيد بنون التوكيد الثقيلة في الفعل **(لا يُصيبَنَّكَ)** لشدَّة التحذيرِ من بطش الشاعر في قوله.

وينصح كذلك بقوله:

٦٨- لَا يَغُرَّنَّكَ لِينٌ مِنْ فَتًى .: إِنَّ لِلْحَيَّاتِ لِينًا يُعْتَزَلْ

بأن لا ينخدع الإنسانُ بما يجده من حلمِ مَنْ يتعاملُ معه منَ النَّاسِ وسهولته في المعاملة، وليونته في المحاورة، فقد ينضوي تحت هذا الأسلوب ضررٌ عظيمٌ وخطرٌ كبيرٌ يُضمره هذا الإنسانُ المخادعُ المخاتلُ، ويشبِّه حالتَه بالحيَّة التي تلسع فتقتلُ أحيانًا مع أنَّها ليِّنَةُ الْخَلْقِ وناعمةُ الْمَلْمَسِ، ويعتزلها الناسُ؛ لشدَّةِ أذَاهَا وعظيمِ ضررِهَا وكبيرِ خطرِهَا.

---

(١) الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ٢/ ٣١٠.

(٢) اللسان: (ثعل).

وكعادتِهِ يأتي بالطلب أولًا، سواء كان أمرًا أو نهيًا، ثمَّ يُتبعُهُ بالحجة والإقناع بالدليل.

وتقديم المتعلق بالخبر على اسم (إنَّ) في قوله: **(إنَّ للحيَّـــاتِ لينـــاً)**؛ للتحذير من شأن الإنسان المخادع، كالحيةِ الناعمة الملمس اللينة، لكنَّ أذاها عظيمٌ، وتنكيرُ اسم إنَّ **(لينـــاً)**؛ مبالغةً في التهويل من شأنه، فهو لِينٌ خطيرٌ، وضررُهُ كبيرٌ.

****

المبحثُ الخامسُ

مُخْتَتَمُ اللَّاميَّة

٧٤- وَصَـلَاةُ اللهِ رَبِّـي كُلَّمَا .: طَلَـعَ الشَّمْسُ نَهَـارًا وَأَفَـلْ

ويختم ابنُ الورديِّ نصائحَه ومواعظَه بالصلاةِ من الله تعالى على سيِّدِ البشر الذي صرح باسمه في البيت التالي، كلَّما طلعتِ الشمسُ وكلَّما أفلتْ يعني غابت بدخول الليل، وهذا كنايةٌ عن تواصُل الصلاةِ ودوامِها ما دام الكونُ، حيث لا تغيب الشمسُ فيه عن الطلوع والأفول، فكذلك لا تغيبُ الصلاةُ من الله تعالى على نبيِّه ﷺ دائمًا أبدًا.

وختمُ القصائد بالصلاة على النبي ﷺ عادةُ كثيرٍ من الشعراء، وكأنَّ الصلاةَ عليه ﷺ إيذانٌ بانتهاءِ المقصودِ وبلوغِ المُرادِ، وتتمَّةٌ وتشريفٌ وتكميلٌ للمعاني التي اشتملتْ عليها القصيدةُ، وإضفاءٌ لمزيدٍ من التعظيم والتشريف والتبجيل.

والتعبيرُ بالجملة الاسمية **(وَصَـلَاةُ اللهِ ربِّـي)** للدلالة على الثبوت والدوام، فصلاةُ الله تعالى على نبيِّهِ ﷺ ثابتةٌ دائمةٌ في كلِّ وقتٍ وحالٍ.

وقوله: **(وَصَلَاةُ اللهِ)** الإضافةُ هنا للتعظيم والتعلُّق بجلالِ الله، وذكر نعمتِهِ على عبدِهِ بالإسلامِ.

وقوله **(ربِّي)** بدلٌ أو عطفُ بيانٍ على اسمِ الجلالةِ **(اللهِ)**، وفيه ما فيه من إضفاءِ التشريف والتعظيم بمقام الربوبيَّة، وتشريفٌ كذلك بصلاةِ الله على نبيِّهِﷺ.

وبين **(طَلَعَ، وَأَفَلَ)** طباقٌ يقوِّي المعنى ويُمكِّنُه، والتقييد بـ **(كُلَّمَا)** يفيد إحاطةَ صلاةِ الله تعالى على نبيِّه ﷺ بالوقتِ والحينِ، فكلَّما "معناه كلَّ وَقْتٍ"[(١)].

---

(١) شرح كتاب سيبويه، لأبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت ٣٦٨هـ)، تحقيق: أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٨م، ٣/ ٣٠٩.

٧٥- لِلَّذِي حَازَ الْعُلَى مِنْ هَاشِمٍ .: أَحْمَدَ الْمُخْتَارِ مَنْ سَـادَ الْأُوَلْ

والصلاة التي طلبها من الله تعالى في البيت السابق تكون لهذا الذي نال المكانة العالية والدرجة السامية في قومه بني هاشم، وهو سيدنا محمدٌ ﷺ الذي من أسمائه أحمد، والذي اختاره الله تعالى لمنصب الرسالة والنبوَّة، وقد صار سيدًا على قومه.

وقوله: **(مِنْ هَاشِمٍ)** للتخصيص، حيثُ اختصَّ اللهُ نبيَّه ﷺ من بني هاشمٍ، وهو كنايةٌ أيضًا عن تفرُّدِهِ ﷺ واختيارِهِ من بني هاشمٍ.

والجار والمجرور **(لِلَّذِي حَازَ الْعُلَى)** متعلِّقٌ بمحذوفٍ خبرٍ عن المسند إليه في البيتِ السابق **(وَصَـلَاةُ اللهِ)**، والتقدير (كائنةٌ أو ثابتةٌ)، والتعبير بالاسم الموصول **(الَّذِي حَازَ الْعُلَى)**؛ للقصدِ إلى وصفِهِ بجملةٍ، فيها من تعظيم النبي ﷺ وتبجيله، والافتخار بقومه.

والمدح يستدعي الإطنابَ، ولا سيما مدح النبي ﷺ، فعبَّر بالموصول **(مَنْ سَـادَ الْأُوَلْ)**؛ لوصف النبيِّ ﷺ بجملةٍ فيها ما فيها من التشريفِ والتَّعظيمِ والتَّقديرِ بعلوِّ مكانتِهِ وسيادتِهِ الأوائلَ ﷺ.

٧٦- وَعَلَى آلٍ وَصَحْبٍ سَـادَةٍ .: لَيْسَ فِيـهِمْ عَاجِزٌ إِلَّا بَطَـلْ

ولا ينسى ابنُ الورديِّ أنْ يُصلِّي ويُسلِّمَ علَى آلِ رسولِ الله تعالى، وعلى أصحابِهِ الَّذين سادُوا بأخلاقِهِمْ واتِّبَاعِهِمْ لنبيِّهِمْ ﷺ، حيث كانوا سادةً وأبطالًا حتَّى العاجزُ منهم كانَ بطلًا من الأبطالِ، حيث حوَّلَهُمْ سيِّدُنَا محمدٌ ﷺ منْ رُعَاةٍ للغنَمِ إِلَى قَادةٍ لِلْأُمَمِ.

والجار والمجرور **(وَعَلَى آلٍ)** متعلقان بفعلٍ محذوفٍ تقديرُهُ **(وَأُصَلِّي)** كذلك على آلٍ وصحبٍ، والصفة **(سَـادَةٍ)** بيانٌ لحالِ هؤلاء الصحب، وكذلك جملة **(لَيْسَ فِيـهِمْ عَاجِزٌ إِلَّا بَطَـلْ)** صفةٌ تزيد في تربية الفائدة وتصف حال

هؤلاء الصَّحْبِ الْكِرَامِ الَّذِين صَحِبُوا النبيَّ ﷺ واتَّبَعُوهُ حتَّى سادُوا النَّاسَ جميعًا بأخلاقهم واتِّباعهمُ المصطفى ﷺ، فصاروا أبطالًا بذلك، حتَّى العاجزُ منهم كان بطلًا، بفضلِ رسولِ اللهِ ﷺ.

والقصرُ بالنفيِ والاستثناء **(ليسَ فِيــهِمْ عَاجزٌ إلا بَطَــلْ)** يؤكِّدُ معنى التعظيم والتشريف والتقدير لرسولِ الله ﷺ.

****

هذا وقد نظم ابنُ الورديّ لاميَّتَهُ على بحرِ الرَّمَل، (وقد كُتِبَ لها من السَّيْرُورَةِ ما لم يُكْتَب لِلاميَّتَيِ العربِ والعجمِ،... وما ذلك إلا لأنَّ بحر الرمل قد لذَّتْهُ نفوسُ المتأخِّرينَ، حتى صار عندهم بمنزلة الأوزان القِصَارِ، وقد وُفِّقَ ابنُ الورديّ توفيقًا لا يُنكَر حتَّى إنَّ روحَ الأسى ليشيعُ في قطَعٍ عدَّةٍ منْ لاميَّتِهِ)[١].

و(نغمةُ الرمل خفيفة جدًا، وتفعيلاته مرنةٌ للغاية؛ إذ كثيرًا ما تصير "فاعلاتن" "فعلاتن" ولا يكاد يلحظ ذلك، وفي رنَّتِهِ نشوةٌ وطربٌ والأوائل من الجاهليين يكثرون من هذا الوزن في أشعارهم)[٢].

والقافيةُ ساكنةٌ لمناسبةِ الغرض الذي قيلت فيه وهو التحلِّي بمكارم الأخلاق، فلْيُمْسِكِ المتلقي على الأخلاق الحسنة، وليكفَّ ويجتنبْ غيرَها ويبتعدْ عنه.

وحرف اللام (له صوتٌ يوحي بمزيجٍ من الليونة والمرونة والتماسك والالتصاق، وهذه الخصائص الإيحائية لمسية صرفة،... وبسبب من خاصية الالتصاق في حرف اللام، قد استخدمه العربيُّ للنسبة والتملُّك)[٣].

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د/ عبد الله الطيب، دار الآثار الإسلامية- وزارة الإعلام الصفاة – الكويت، ط٢، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م، ١/ ١٦٧بتصرف.

(٢) السابق، ١/ ١٤٨.

(٣) خصائص الحروف العربية ومعانيها- دراسة-، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨، صـــ٧٦، وما بعدها.

وقدْ وُفِّقَ ابنُ الورديّ في نظمِ قصيدتِهِ على هذا الحرف (اللام)، الذي دعا المتلقي من خلاله إلى التحلِّي بمكارم الأخلاق والتمسُّك بها وتملُّكها، وهيَّأ له معانيها في مرونةٍ ولينٍ وسهولةِ ألفاظٍ، حملته على الامتثالِ والاقتناع.

******

الخاتمــة

بعد مُعايشَةِ لاميَّة ابنِ الورديِّ بدراسةِ شعرِ الأخلاقِ فيها دراسةً بلاغيَّةً، تبيَّنتِ النتائجُ الآتيةُ:

- دقَّة ألفاظ ابن الورديّ وجزالتها، وسهولة معانيها، وبُعدُها عن الغرابة والتعقيد، فكان أسلوبُهُ واضحًا صريحًا لا غموض فيه.
- أنَّ ابن الوردي كثيرا ما كان يلجأ في لاميَّتِهِ إلى سوق الحِكَم، وهذا هو الغالبُ على شعرِ المواعظِ والنُّصْح، حيث كان يؤصِّلُ لمعانيه، ثمَّ يبرهنُ عليها؛ ممَّا يزيد في إقناع المتلقِّي، ويحملُهُ على الإقرار بالمعنى.
- الاقتباس الواضح من القرآن الكريم لدرجة أنه يضمن شعره بعضًا من كلام الله ﷻ، ويُلمِّحُ إلى آياتٍ منه؛ وذلك رغبةً في الارتقاءِ بمعانيه، تمكينِها وتثبيتِها في ذهن المخاطبِ.
- اعتمد في الغالب على التعليل، فكان يُتْبِعُ طلبَه أو توجيهاته الأخلاقيَّة بالشرح والتعليل، وإبداء الحجة والدليل، فيأتي بالفاء إذا انصرف ذهنُهُ إلى العلَّةِ أو السبب، يُوضحها ويُلقيها للمخاطب دون أن ينتظر منه السؤالَ مبادرًا إيَّاه، وكان يأتي بالسبب والعلة في جملةٍ فصِلت عمَّا قبلها على سبيل الاستئناف البياني، إذا لحظ أنَّ في كلامِهِ ما يُثيرُ المخاطب ويحرِّك في ذهنه التساؤلات، فيلحظ الحركة الذهنيَّة والنفسية لدى المخاطب، وكثيرًا ما كان يؤكِّد كلامه حينئذٍ بـــــ(إنَّ)؛ تمكينًا للمعنى في ذهن السامع، وتقريرًا له في عقلِه.
- كثيرًا ما يجمع في لاميَّتِهِ بين الأمر والنهي لتأكيد المعنى، وكان اعتماده على أسلوب الأمر أكثر من النهي، فيميل إليه ثمَّ يُتبِعُهُ بالنهي، لمزيدٍ من الحجة وإقناع المتلقِّي.
- أجاد ابن الوردي في الربط بين أجزاء القصيدة، فخرجتْ وحدةً متماسكةً، ظهر فيها حسن الابتداء، وحسنُ التخلُّص، وحسن الانتهاء.

- تميَّزت لاميَّتُهُ بأنَّها من القصائد التي يجمع فيها الأبيات التي تتحدث عن النصح عن خلقٍ معينٍ، ثمَّ ينتقلُ إلى خلقٍ آخر بأبياتٍ جديدةٍ، وهذا نوعٌ من التنظيم، وتسلسل الأفكار، وترابطها.
- أورد ابنُ الورديّ بعضَ معانيه بطريق التصوير البياني، وتنوَّعت طرق تصويره بين الاستعارة المكنيَّة، والاستعارة التمثيليَّة، والتشبيه، والمجاز المرسل، والكناية؛ لما استدعاه المقام والسياق من تدعيمٍ بالتشخيص، وتوضيحٍ بالتمثيلِ، وتأكيدٍ للمعنى مصحوبًا بالدليل والبرهان.
- اعتمد كذلك على التلميح في تأكيد معانيه والتدليل عليها؛ حتى يُقرَّ بها المتلقي.
- وظَّف ابنُ الورديّ بعضًا من المحسنات البديعية (لفظيَّةً ومعنويَّة)، كالجناس، ورد العجز على الصدر، والطباق، والمقابلة، ومراعاة النظير، دون تكلُّفٍ؛ طلبًا للسياق، واستدعاءً للمقام.
- شاعتْ في أبيات هذه اللاميَّة روحُ النُّصْحِ والإرشادِ والتوجيهِ والتحميس للتحلِّي بمكارم الأخلاق.
- نجح ابنُ الورديّ في إقناع المتلقي واستمالتِهِ، وحملِه على الإقرار بمعانيه التي أراد بثَّها إليه، وحبَّبه في مكارم الأخلاق، وزيَّنها له، ونفَّره من مساوئها، وكلُّ ذلك بما استخدمه من أسلوبِ الجذبِ والتشويقِ بالإنشاء، ثمَّ شفعه بالدليل والحجة والإقناع.

****

والله أسأل التوفيق والقبول

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أشعار الشعراء الستة الجاهليين، لأبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمريّ الأندلسيّ المعروف بالأعلم (٤٧٦هـ)، تحقيق وتعليق: د/ عبد المنعم خفاجي، ط١، المطبعة المنيرية بالأزهر- القاهرة، ١٣٧٣هـ- ١٩٥٤م.
- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط ١٥، ٢٠٠٢م.
- البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم، د/ عبد الفتاح لاشين، مطبعة دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٣٥هـ- ٢٠٠٩م.
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت٩١١ هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢- دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم دمشق، الدار الشامية – بيروت، د.ت.
- البلاغة العربية بين الإمتاع والإقناع، د/ مسعود بودوخة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠١٥م.
- التحفة النديَّة في شرح اللامية الورديَّة، لشيخ الإسلام نجم الدين الغزي العامريّ المتوفَّى (١٠٦١هـ)، طبع منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة- دمشق، ط١، ٢٠١٢م.
- التحفة النديَّة في شرح اللامية الورديَّة، لشيخ الإسلام نجم الدين الغزي العامريّ المتوفَّى (١٠٦١هـ)، تحقيق: د/ هناء سبيناتي، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة- دمشق، ط١، ٢٠١٢م.

- تفاصيل الجمل في شرح لامية ابن الورديّ، د/ عبد العزيز بن علي الحربيّ، دار ابن حزم، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.
- جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي تحقيق: علي محمد البجاوي ط. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.
- خصائص الحروف العربية ومعانيها- دراسة-، حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م.
- دراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات محمد أبو ستيت، دار خفاجي للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
- دلالات التراكيب دراسةٌ بلاغيَّةٌ، د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة- القاهرة، ط٢، ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.
- ديوان ابن الوردي عمر بن المظفر (ت٧٤٩هـ)، حققه وعلق عليه وجمع ملحقه: الدكتور/ أحمد فوزي الهيب، ط١، دار القلم- الكويت، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.
- ديوان عنترة بن شدَّاد العبسي، مطبعة الآداب لصاحبها/ أمين الخوري، بيروت، ١٨٩٣م.
- زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، المتوفَّى سنة٤٥٣هـ، ضبطه وشرحه وعلَّق عليه وقدَّم له: د/ يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٦م.
- سرُّ الفصاحة، لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت ٤٦٦هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

- سنة الترك ودلالتها على الأحكام الشرعية، لمحمد بن حسين الجيزاني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣١هـ.
- شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب، لابن العماد شهاب الدين أبي الفلاح العكري الحنبلي الدمشقيّ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.
- شرح المعلقات التسع لأبي عمرو الشيباني، تحقيق وشرح: عبد المجيد همو، منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.
- شرح كتاب سيبويه، لأبي سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت ٣٦٨هـ)، تحقيق: أحمد حسن مهدلي، علي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.
- الشوقيات ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي، دار العودة، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٨م.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي إسماعيل بن حمَّاد الجوهريّ الفارابي (٣٩٣هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاريّ الجعفيّ، تحقيق: د/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير- دار اليمامة- دمشق، ط٥، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لأحمد بن علي بن عبد الكافي، أبي حامد، بهاء الدين السبكي (ت ٧٧٣ هـ)، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

- العطر الورديّ في تخميس لاميَّة ابن الورديّ، نظم القاضي الأديب محمد بن عبد اللطيف آل محمود البحرينيّ، المتوفَّى (١٣٩٠هـ)، تحقيق وتعليق: السيد محمد رفيق الحسيني، دار البشائر الإسلامية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م،.
- العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسيّ (ت ٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط١، ١٤٠٤هـ.
- علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع، أ.د/ بسيوني فيود، دار المعالم الثقافية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ١٤١٨هـ - ١٩٩٢م.
- علوم البلاغة «البيان، المعاني، البديع»، أحمد بن مصطفى المراغي (ت١٣٧١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيروانيّ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل- بيروت، ط٥، ١٩٨١م.
- فلسفة الأخلاق في الإسلام، الدكتور/ محمد يوسف موسى، طبعة مكتبة الخانجي، القاهرة، ط الثالثة، ١٩٩٤م.
- فوات الوفيات، لمحمد بن شاكر أحمد بن عبد الحمن الكُتُبيّ (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٠م.
- القاموس المحيط، للفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
- القيود في الدرس البلاغيّ، د/ عادل محمد محمد الأكرت، حوليَّة كلية اللغة العربية بنين بجرجا، العدد السادس عشر، الجزء الخامس، ١٤٣٣هـ- ٢٠١٢م.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لمحمود بن عمر بن أحمد الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، ضبطه وصححه ورتّبه: مصطفى حسين أحمد، دار الريان للتراث بالقاهرة- دار الكتاب العربي ببيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- لسان العرب، لابن منظور محمد بن مكرم جمال الدين الأنصاريّ، طبعة دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة، د.ت.
- المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبية العصرية، صيدا - بيروت، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د/ عبد الله الطيب، دار الآثار الإسلامية- وزارة الإعلام الصفاة - الكويت، ط٢، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- معاني التراكيب، أ.د/ عبد الفتاح لاشين السيد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٣٥ه، ٢٠١٤م.
- معجم الفروق اللغوية، الحاوي لكتاب أبي هلال العسكري [كان حَيًّا ٣٩٥ هـ]، وجزء من كتاب «فروق اللغات» لنور الدين بن نعمة الله الجزائري (ت ١١٥٨ هـ)، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي بـ (قُمّ)، رَتّبه وبَوّبه على حروف الهجاء: الشيخ بيت الله بيات، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع القاهرة، ٢٠٠٥م.
- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالرَّاغب الأصفهانيّ (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ط: ١، ١٤١٢هـ.
- من أسرار التعبير في القرآن حروف القرآن، د/ عبد الفتاح لاشين، مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

- الموسوعة الفقهيَّة، إصدار وزارة الشئون الإسلاميّة- الكويت، ط١، ١٤٣٥هـ- ٢٠٠٤م.
- ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، تأليف العلامة: السيد أحمد الهاشمي، حققه وضبطه: أ.د/ حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب- القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- نثر الببغاء، أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزوميّ، د/ علي إبراهيم أبو زيدٍ، ط٢، دار المعارف- القاهرة، ١٩٩٤م.

******

فهرس الموضوعات

م	الموضوع
١	ملخَّص البحث باللغة العربيَّة
٢	ملخَّص البحث باللغة الإنجليزيَّة
٣	المقدِّمة
٤	التمهيد
٥	نصُّ اللَّاميَّة
٦	المبحث الأول: مُفْتَتَحُ اللَّاميَّة.
٧	المبحث الثاني: الوَصَايَا.
٨	المبحث الثالث: القناعَةُ والرِّضا بالقلِيل.
٩	المبحث الرابع: التَّعامُل مع مختلفِ الفئاتِ والأحْوالِ.
١٠	المبحث الخامس: مُختَتَمُ اللَّاميَّة.
١١	الخاتمة
١٢	ثبت المصادر والمراجع
١٣	فهرس الموضوعات